كتاب حركة المسرح في حمص

د. ياسر شرف

التأليف في تواريخ الادب واحد من الاعمال العسيرة والخطيرة ، فأما أنه عسيرفلأنه يتطلب عودة الى الوراء ، لاصدار الاحكام وتقليب وجهات نظر ، أو أحكام في نصوص غير متوافرة للباحث ، وفي ذلك ما فيه من جهد ومشقة ، وأما أنه خطير ، فلأن أحكامه أكثر تعرضا للنسبية والانتقاد وربما الابطال أكثر من غيرها ، بسبب طبيعة البحث ومابنيت عليه مما أشرنا ، اذ قد يكون ذلك بناء لنتائج تراتبية في المكانة الادبية او النسبة او الاطراد ، وغير ذلك مما يندرج في اطار التفضيل أو السمو .

وربمايكون المسرح في حمص ،تحديدا ينطوي على درجتين هامتين من العسر والخطورة ، نظرا لكونه من البحوث البكر - نسبيا - لم تتوافر له مجموعة من الباحثين تناوبوا فيه فأنجزوا جوانب عديدة ، ووثقوا نصوصه ، وأكدوا تاريخه ، ووضعوا تسلسل تطوره ، وغير هذا وذاك مما تقتضيه طبيعة الدراسة .

وهذا ما يجعل مؤلفنا الاخ الاديب هيثم يحيى الخواجه ، يسير في حقل الغام ينطوي كل منها على تساؤل ملح ، أو استفسار عميق ، وقد يحمل مشكلة هامة يمكن أن تفجر عددا من الاستفهامات العريضة وتثير قضايا شائكة وشائقة ، جديرة بالبحث والتنقيب والتفاؤل والتصدي .

وقد شكل ذلك أحد الجوانب الهامةفي الحديث عن المسرح وحركته في احدى مدن القطر العربي السوري ، التي ما فتئت تقذف بفلذات كبدها الى الساحة الادبية مبدعين وأدباء ونقادا ومسرحيين وشعراء تتلقفهم الاتجاهات المختلفة ويتناولون عديدا من وجوه التعامل مع المشاهد

أو القارىء او السامع ، بكلمة : الآخر ، يواجهون فيه التحدي والتأييد ويسطرون صفحات جديدة في تاريخ الادب العربي في هذا القطر ، في موضع القلب منه ، حمص أم الحجار السود .

فلم يبخل المؤلف بالجهد ، ولا بالتحليل ولا اطلاق الاحكام الشمولية - احيانا - ولا شك أنه بذلك في هذا المجال وفيرا من التقصي والمتابعة ، واستند الى جانب من المرجعية الموثقة ، واستمع الى شهادات المختصين او الذين عايشوا ، ظروف المسرحيات التي تناولها او عرضها او أشار اليها .

واذا كان يصدق على تواريخ الاداب أنها - في مجملها - تواريخ للافكار ، فان هذا الكتاب نموذج حي لهذه الطروحة ، اذ أن الكتاب يتضمن جانبا غير قليل من ذائع الاتجاهات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، التي شغلت الناس في تلك العقود الزمنية ، التي امتدت اليه يد المعالجة والدراسة والتبويب ، فظهر من خلال السياق الادبي جانب من كل ملمح او أكثر ، أضفى على هذا البحث أهمية اضافية ، عبر كل اشارة الى الاوضاع ، التي شغلت الناس ، بمثابة حوادث هامة أو وقائع معطاة ، تتخطى اللحظة العابرة لتقف واحدة من الدلالات في مرحلة مصيرية من العمل الجماعي الجماهيري لأبناء هذا الوطن ، وخاصة في حمص موضوع الدراسة .

وأدى ذلك رسالة هامة أيضا ، جديرة بالاعجاب ، حين أشار الى تفاعل هذه المدينة بالاوضاع الادارية السلطوية والمدى الذي بلغته الجمعيات والنوادي، والفرق ، والاتجاهات التي استأثرت باهتمامات الاشخاص وامكاناتهم ، وجملة مالاذ به عدد من الادباء وأصحاب المسارح والمخرجين والممثلين ، من وسائل تعبيرية لنقل تصورات الجماعة - سياسيا واقتصاديا واجتماعيا - وزمرة من التطورات التي تعد بمثابة ارهاصات لأحداث تلاحقت في المدينة او المنطقة او القطر .

فلا أحد يستطيع ان ينكر ما لمذهبية هذه الدراسة من فوائد ايجابية ، تتمثل أول ما تتمثل في التزامها حركة الشعب في صنع الحدث ، ومصانعة الجمهور في مواقفه ازاء الاجراءات الرسمية ، ومفاصل التقارب او المعاندة ، التي كانت بين القبول والرفض ، وما يدخل في هذه المواجهات الاحتمالية من أمور تتسم بقابليتها للتصنيف لمصلحة الشعب ، او ضدها ، بحسب عدد من المعايير القابلة التحديد .

وما من شك في أن هذا الموقف المتمثل في الانحياز الى الجمهور ، قد أدى وظيفة أخرى جليلة ، بدت من خلال اتسام المسرح - كفن أدبي - بالاعتماد على الجمهور ، وقد أدى هذا الازدواج الى نتيجة مترعة بالتفاؤل ، مفادها أن المسرح قد أدى رسالة اجتماعية هادفة ، ولعب دورا سياسيا تقدميا ، وأشار الى اتجاهات ثقافية علمانية ، وكان واحدة من المنارات الفكرية الكثيرة التي استضاء بها الجمهور ، وألقت ضوءا مفيدا على زمرة من قضايا الساعة ، كما كشفت غلالات مختلفة الشفوف عن قضايا ومشكلات تتصف بأنها ملحة او أساسية

في التوجهات العامة او المواقف الخاصة ، ازاء ما يجري من أحداث ، وما تمر به البلاد من تطورات ٠

وجاءت الافادات الشخصية والشواهد المنتزعة من كتب المذكرات وتواريخ الادب ، في هذا البحث ، لتؤكد الجانب المضيء من عمل المؤلف ، الذي تجلى في سلاسة العرض وعمق التحليل وصدق النبوءة ، وانكشفت معالم خريطة التطور في اوضاع المسرح الحمصي ، وتآزرت النقاط الاشارية الهامة ، فانعقدت الصلات ، وأقيمت الاسباب الترابطية ، وظهر المدى الذي بلغته تجربة مسرحية رائدة ،في احدى محافظات قطرنا العربي السوري ٠

وربما كان مما حرض عليه المؤلف قيام الباحثين المختصين بتناول التراث الادبي لابناء هذه المحافظة ، في اطار أجناس أدبية أخرى ، كالشعر ، والمقالة ، والقصة ٠٠ وغيرها ، مما يؤدي الى الاسهام المباشر في جمع معلومات وفيرة ودقيقة عن الاوضاع الادبية ، والاضافات الاصيلة ، والمساهمات المفيدة ، ويكشف عن الجدة والجودة في سياق الانتاج الادبي العام ، باعتبارهما تيارا رافدا لمجمل الادب النتاج في وطننا الصغير ثم الكبير ٠

يكفي المؤلف فخرا انه سار على الدرب ، وعلى القادرين ان يكملوا الشوط بالمتابعة ، فله أسمى الثناء ، وعلينا واجب الاستمرار ٠

د ٠ ياسر شرف

أسطورة الذّهب

زكي قنصل

اسطورة الذهب

في عشاء وداعي اقامته الجالية على شرفه
يوم عاد الى الوطن سنة ١٩٦٨

هلت سماء الحمى ، فاسبح مع الشهب   وهللت ارضه فاسرح ولا تهب
لا لست في حلم تخشى عواقبه   بل انت في مهرجان الشعر والادب
في عصبة نجب يرقى بهم نسب   لعصبة ملء تاريخ العلى نجب
يا قلب كم هزنا وجد وارقنا   هم وقلبنا شوق على لهب
كم اصطنعنا من الاحلام أجنحة   ثم افترشنا بساط الرمل والعشب
مافي رجوعك للفردوس من عجب   ان اغترابك عنه منتهى العجب
فراق اهلك جرح ليس يلائمه   مافي البرية من جاه ومن نشب
هل ضمك الليل الا شاكيا وصبا   ترويه بالدمع او تطويه بالدأب
ويح المهاجر يسعى في مناكبها   يقظان من وجل ، سهران من نصب
اذا انتمى القوم الوى وجهه خجلا   اني يعز شريد ضائع النسب ؟
لا رجله في بلاد الناس راسية   ولا بموطنه موصولة السبب
توزعت نفسه ما بين ذاك و ذا   فضاع معناه بين البعد والقرب

كأنه كرة يلهو الصغار بها   او آية الحمد في سفر من الريب
تلك الاساطير من شهد و من لبن   تحولت علقما في عيشة الخشب
يشارك القوم في اعيادهم فرحا   والله ادرى بما يخفيه من كرب
لا تنخدع ببريق في محاجره   مافي السراب غنى للظامىء السغب
هذا الهزيج الذي ينساب في فمه   نار موّجة في صدره التعب
دنياه قاتمة الافاق عابسة   وفجره مائج الاماق بالكذب
لا يذكر الدار الا غاب في حلم   زاهي الحواشي والا اهتز من طرب
ايام يرتع في امن وعافية   خالي السريرة من هم ومن رعب
خلق اللباس عزيزا في خصاصته   من قال ان العلى في الملبس القشب
يغفو قريرا على الاشواك تلدغه   كأنهن رموش الزنبق الرطب
ويشرب الماء رنقا لا يغص به   كأنه يستقي من سلسل عذب
لا يشرئب الى ما عز من طلب   ولا يزاحم مغرورا على لقب
اذا تعصى عليه حل مشكلة   جدية حلها بالهزل واللعب
وان تصارعت الاهواء واضطربت   رنا اليها بطرف غير مضطرب
ما دام يملك ما يكفي للقمته   فأي داع لهذا الشر والشغب ؟
تهيج زقزقة الحسون نشوته   وتستثير هواه انة القصب
دين الحضارة في عينيه شعوذة   ومجدها حبب طاف على حبب
يا ذكريات الصبا رفقا بمنهدم   ويا خيال الحمى لطفا بمغترب
ما كان أخسر في الدارين صفقته   لما لوى وجهه عن كوخه الخرب
اغرته خلف مرامي الافق جلجلة   وزلزلت عقله اسطورة الذهب
قالت له الكتب ان لاخير في بلد   محل ، فهام وراء المرتع الخصب
وما تعلم الا بعد هجرته   ان السعادة شيء ليس في الكتب
جنى عليه واشقى اهله طمع   يا ليت ياليت لم يذهب ولم يؤب
لم تبق منه بلاد المعجزات سوى   ما تترك النار في كوخ من الخشب
اعطته حفنة صلصال فجاد لها   بالغاليين شباب الروح والعصب
وزانها بالنجوم الزهر ينجبهم   للسيف والضيف ، او للعلم و الادب
يا مسقط الرأس اضناني هواك فهل   يشفي هواءك مافي الصدر من وصب
صخب المدينة كابوس اضيق به   من ينقذ البلبل الشادي من الصخب

حملت رسمك في عيني وفي خلدي ولذت باسمك في صفوي وفي غضبي
اهوى ترابك ، لكن ليس لي امل ان استريح غدا في صدرك الرحب
اثنان في آخر الدنيا تركتهما يحببان الى عيني مغتربي
طفل ينضر دربي بابتسامته وحلوة ينتهي في ظلها تعبي
لولاهما مابكى قلبي ولا التفتت عيني الى البحر اوطافت على السحب
اغفو فيملأ احلامي خيالهما واستفيق فيستلقي على هدبي

عاد الغريب ولكن بعد ان خبطت سفينة العمر في داج من النوب
تلك الغصون الزواهي في خمائله لم يبق منها سوى شيء من الحطب
يا رب سدد خطاه في . رسالته من دق بابك لم يحزن ولم يخب
اعطى العروبة قلبا صادقا ويدا فاجعل نهايته في خدمة العرب

زكي قنصل

محنتنا في الفن «التجريدي»

بقلم سعد صائب

كلما أنبأت نقاد الفن الغربيين — ابان رحلتي الى أوروبا — بأن لدينا نحن كذلك « فناً تجريدياً » يشاكل فنهم ، ويوشك أن «يبزه» بتهاويله ، تولاهم الدهش ، وأخذت منهم الحيرة مأخذها ، فمضو يهتفون بي ، وقد همو بالابتسام الذي يشف عن السخرية... وكأنهم بذلك يشيرون إلى عيوب « فناننا » ويضعونه مواضع الريبة ، بعد أن شك عليهم منهجه ، فيقول قائل منهم :

ثمة ظاهرتان لا يخالجنا الشك في أن فنانكم قد جهلهما ، احداهما:أن الفن التجريدي لا يعد و — بالنسبة الينا — ارهاصاً من الارهاصات التي ولدتها تطبيقات العلم المادية ، نجم عنه ردة فعل لا تستهدف البتة المذاهب الفنية التقليدية التي استهلكت نفسها ، بقدر ما تستهدف خطر «التكنولوجية» الحديثة التي تستهلك اليوم انساننا ، ولم تؤدبه الى الغربة الضياع فحسب،بل كادت تخنقه بالخوف من المصير الذي يترصده ، لذا كان احساسنا بهذا الخطر الذي يتهدد حضارتنا شديداً ، بحيث اضطر فناننا الى التعبير عنه بما يلائمه .. ومن عجب أن يتبنى فنانكم هذا الاحساس دون أن يحياه بصدق كما نحياه نحن ، وما دري أنه سيظل احساساً زائفاً ... ومن عجب كذلك أنه تمادى في التعبير عنه ، دون أن يضع في حسابه الظروف المأساوية التي نمر بها ، وما علم أن هذا التعبير سيكسب فنه مظهراً زائفاً مهما برع فيه ! والظاهرة الثانية : « أن تعقد كياننا الاجتماعي ، ومصالحنا الأكثر تنوعاً تجيز لنا ادراك ألوان من الجمال ممتنعة على حواس وادراك شعب يعيش في ظل ثقافة أضيق أفقاً » وبديهي أن هذا الفن لا يوائمكم ، ولا سيما أنه يتطلب « ملكة من التفكير خارج الوجود المتعين « كما يستلزم استعداداً وقدرة تعتبران من أهم جوانب الفكر الإنساني ، ناهيك عن أنه أمسى جزاً من تقاليدنا الثقافية والفنية التي تختلف عن تقاليدكم ، وأنه وبالتالي يتأبى على من لم يكن ذا عقل حضاري ناضج كعقلنا ، ورقي ثقافي واجتماعي رائع كرقينا .. وعهدنا بكم أنكم ما برحتم في طور « النمو » وما فتئتم تعيشون في ظل ثقافة أضيق أفقاً من ثقافتنا ! ...

ويقول آخر : لئن توهم « فنانكم » أننا انما اصطفينا هذا الضرب من الفن على « الكلاسيكية » وسواها من ضروب الفن

ومذاهبه ، رفضاً لها وإعراضاً عنها ، وتجديفاً بها ، لقد أخطأ في وهمه ، لأن « الكلاسيكية » وأخواتها لا تني حيةً فينا ، وهي من مقومات تراثنا الفني ، الذي لا ننفك نعتز به ونفخر •••

وما كان أخذنا بالفن التجريدي ، إلا اضافة قيم فنية جديدة الى تراثنا ، بعد أن أدركنا أن عصرنا قد تجاوزه • ولئن لم تعد مذاهبه الفنية توائم أذواقنا ومعتقداتنا ، فقد ظلت لمعاييرها قيمتها فينا ، بعد أن تملثناها في وجداننا ! ••

ولا سيما ئأنا سرنا بالتجديد الفني بدءاً من البسيط إلى المركب وليس العكس ، كما نجم من تحكمنا بطاقتنا الفنية لا من هدرها !••

ثم يردف قائلا : هب أننا أعرضنا يوماً عن مذهب التجديد هذا ، أوعدنا بالتالي الى مذاهبنا الفنية التي هجرناها ••• أترى سيعرف فنانكم عن « تجريده » ويختار مذهبنا الجديد دون « سبق تمثل لتأثيرات ممكنة » ــ كما يرى «برغسون» أم تراه سيعود الى مذاهبنا التي هجرناها وقد جهلها ؟

ألا يعني ذلك ــ في الحالين ــ أنه سينتهي إلى عجزه ن ابتكار أي مذهب يضفي عليه لونه الخاص ، ويحمل طابع شخصيته ؟ هذا الطابع الذي سيعبر عنه ، ويشهد له بحريته في ابتكاره؟

ويهتف ناقد ثالث : ويح فنانيكم ، ألم يبلغ سمعهم قول أحد مفكرينا « إن في كل انسان غريزة عميقة ، ليست هي غريزة الهدم ، ولا هي غريزة البناء ، ولكنها الرغبة في ألا يشبه شيئاً أبداً » فيم ينفردون وحدهم إذن ؟ أولا يعلمون أنهم انما يرمون الى هدم فنهم الوليد لا الى بنائه ، وأنهم يهدفون إلى مسخ «تجريدنا» لا الى الابتكار فيه ؟

حبذا لو نقلت إلى فنانيكم نصيحتي : دعوا فناني الغرب يبكوا وحدهم مأساتهم ، ولا تشاركوهم في بكائهم ، لأن بكاءكم لما يزل له له صخب مدو شبيه بصخبكم في بكائكم على مآسيكم ، مما يزيد من مأساتنا ، ولا ينجدنا في غربتنا ، ويفرغ علينا الصبر ! •

لذا عليكم في البدء أن تستعيدوا مذاهبنا التي هجرناها ، وتتمثلوا تأثيراتها الممكنة لتفيدوا منها . وحذار أن تغلوا في تقليد « تجريدنا » فلن يفيدكم ! ••

ومنذ أن عدت إلى موطني وأنا أجيل في ذهني هتاف النقاد الغربيين ، بعد أن مس شغاف قلبي ، فأحس بهزة تسري في كياني ، كلما طالعني « فن تجريدي » يبدهنا به أحد«فنانينا» ثم لا ألبث إثرها أن أصبح مرغماً بملءٍ في ، وأنا أكتم حزناً دفيناً أورثنيه هتاف النقاد الغربيين بي :

أترى يعلم هذا الدعي من فنانينا أن الفن تعبير عن حضارة الأمة وحياتها الاجتماعية والعقلية ؟ وأن تطوره رهن بتطورهما وازدهارهما ؟

أتراه يعي أن الإبتكار فيه ، لن يجيء إلا من عقل الأمة الحضاري ورقيها الثقافي والإجتماعي ؟ •

أتراه يعي أن الابتكار فيه ، لن يجيء إلا من عقل الأمة الحضاري ، ورقيها الثقافي والإجتماعي ؟

أتراه يدرك أن اقباله على الأخذ بنمط « الفن التجريدي » دون تزود أمته بعقلحضاري ناضج ، ورقي ثقافي واجتماعي رفيع ، لن يغني فنها بل يفقره ، ولن يخصبه بل يفضي

به إلى العقم ؟ •

أإذاً راح الغربيون ـ وقد بلغوا بحضارتهم ورقيهم العقلي شأواً بعيداً ـ يطالبون اليوم فنانهم أو شاعرهم بأن تكون اللوحة أو القصيدة « عيداً من أعياد العقل » ؟ أفيجدر بفناننا أو شاعرنا أن يحذو مستخذياً حذو فنانهم أو شاعرهم ؟

أملزم « فناننا » خاصة ، بأن يجسد في في لوحاته أعياداً تغاير أعياد أمته ؟

أفلا يدل صنيعه على أنه إذا أضاع نفسه ، واضطرب في نهجه ، انتمى إلى عقل حضاري واعٍ لم يبدع فيه ، واحتمى برقي فني رفيع لم يسهم في تكوينه ؟ • •

والسؤال الذي لا ندحة لي عن طرحه :

علام يتهافت فناننا إذن على هذه البدعة المدمرة التي يصفها « بيكاسو » نفسه بأنها : « صنعة عميان » ؟ أو ينبغي أن يسمى أعمى في « فنه » كيما « يجرد » عقل أمته وحياتها من قيمتهما ؟

أم ينبغي أن يحطم هذه القيمة أو يلغيها ، بعد أن أثبت عجزه عن تكوين هذا العقل ، ودل على تقاعسه في التعبير عن تلك الحياة ؟ ••

من يدري ، لعله بصنيعه هذا إنما يقتدي «بحكمة الخضوع ـ للغرب ـ الخضوع النهائي » ـ على حد تعبير ـ « اليوت »ـ ! ••

ألا ليته يعلم أن « تجريده » الذي ينهد له اليوم ـ والخلق الفني لما ينضج بعد لدى أمته ـ دلالة على جهله نفسه ، واضطرابه في نهجه ، ونسيانه وظيفته ، وتنكره لعقل أمته ، وانسلاخه من حياتها ! ••

لكأني ـ وأنا أشهد هذه المحنة تلم بفننا ـ استمع إلى عقل أمتي بعد أن عاداه « فناننا » وخفر ذمته ، ولما يزل في طور نشأته ـ وهو يتهمه بتخليه عنه ، ويدينه بوهن إحساسه بحقيقته ! •

لكأني ـ وأنا أرنو إلى حياتنا ـ بعد أن انفصم عنها « فناننا » وخان عهدها ، ولما تبرح في بدء تفتحها ونموها ـ وهي تؤاخذه على غموض رؤيته ، وضياع هويته ، ونأيه عن رسالته ! ••

لكأني بعقل أمتي وحياتها ، بعد أن تقطعت الأسباب بينهما وبين «فناننا التجريدي» وألفينا أنهما افتقدا في صنيعه حقيقتهما ، لخلوه من معناها تفريغه من محتواها ، يمضيان مستغيثين ، ودموعهما تنهمر على خديهما دائبة لا تهدأ أو ترقأ بعد أن استشعروا رزأهما العميق في فنه :

حنانيك أيها الفنان !

إن كنا حقاً جديرين « بتجربتك » فلا تشك فينا ، أو تيأس من ظروفنا ، بل أعرف حقيقتها ، وافهمها ، وتعاطف معها ، وعشها في وجدانك ، ثم اسم بها في فنك ! •

حنانيك أيها الفنان ! عد إلينا رحمةً بنا • • • وحناناً علينا ! ! •••

أنا زنجي

شعر الفيتوري

قلها لا تجبن لا تجبن
قلها في وجه البشرية
أنا زنجي
وأبي زنجي الجد
وأمي زنجية
أنا أســود
أسود لكني حر أمتلك الحرية
أرضي افريقية
عاشت افريقية
عاشت أرضي
عاشت افريقية
أرضي .. والابيض دنسها
دنسها المحتل العادي ...
فلأمضي شهيدا
وليمضوا مثلي شهداء أولادي

فوراء الموت . ووراء الأرض
تدوي صرخة أجدادي ..
لستم بنينا ان لم تذر الريح رماد الجلاد
لستم بنينا إن لم يجل الغاصب عنها مدحـورا
ان لم تخلع أكفان الظلمة
ان لم تتفجر نوراً ..
ان لم يرتفع العلم الأسود
فوق رباها .. منصوراً
ان يحن التاريخ لكم جبهته فرحان فخوراً
الجفر يدك جدار الظلمة
فاسمع ألحان النصر
هاهي ذي الظلمة تتداعى ..
تساقط .. تهوي في ذعر
ها هو ذا شعبي ينهض من اغماءته
عاري الصدر

الحديث الصحفي الأخير لأرسكين كولدويل

ترجمة : عبد اللطيف جبور

مات أرسكين كولدويل ـ الممثل البارز للأدب الأميركي المعاصر . وبموته فقدت الثقافة الأمريكية لا بل والعالمية ككل كاتباً واقعياً موهوباً ، وخبيراً كبيراً في صياغة الكلمة .

والذي جلب لكولدويل الشهرة العالمية وحب ملايين القراء له هو كتبه التي تفضح بسخط نظام العنف والقسوة والتمييز العنصري في الولايات المتحدة . ففي كتبه تنعكس مصائر الأمريكيين البسطاء ، الذين أصبحوا ضحية المجتمع الرأسمالي . وفيما يلي سننشر الحديث الصحفي الأخير الذي أدلى به الكاتب لصحيفة « انترناشيونال هير الدتريبون » .

يتمالك أركسين نفسه بهيبة صارمة ، وإلى حد ما يتحمل الحرج النابع من بساطته لدى زيارة الصحفين الذين يحبون استقصاء كل أخبار الكاتب .

أعلن لي الكاتب الشهير وهو جالس على كرسيه الكبير في بيته الريفي : أنا لن أقول شيئاً . وسأجيب عن الأسئلة فقط .

بلغ عدد الكتب التي ألفها أرسكين كولدويل خمسة وخمسين كتاباً ، وترجمت وفقاً لحسابات زوجته الدقيقة إلى ثلاث وأربعين لغة ، ونشرت بأكثر من / ٨٠ / مليون نسخة . ومنذ فترة قصيرة خرج من تحت الطبع كتابه الأخير الذي يعتبر نوعاً من سيرة الحياة الذاتية وهو يحمل عنوان « قصارى جهدي » .

في الثلاثينات والأربعينات ذاع صيت كولدويل كـ « معجزة النشر » وكأبرز كاتب شعبي يحقق رقماً قياسياً من النسخ التي كانت تندرج في زي « موضة » الكتب الرخيصة الثمن المغلفة بأغلفة ورقية . وحتى الخمسينات كان لناشره كامل الحق في التأكيد على أن كولدويل هو أكثر الكتاب الأمريكيين جمهوراً في العالم . فجمهوره كان ولايزال عالمي الطابع وحوالي ربع كتب كولدويل بيعت في الخارج .

لم تطالع روايات المؤلف ببساطة ، بل كانت تثير الضجة تلو الأخرى . وقد استقبل تصويره الموضوعي للتمييز العنصري والاضطهاد الفقر المدفع في أقاليم الجنوب الأمريكي في رواياته « طريق التبغ » ـ عام ١٩٣٢ و « أكر(١) أسياد الله » ـ عام ١٩٣٣ وسخريته اللاذعة في كتبه بحراب رجال الدين والقضاة الموالين للجريمة وبعدد كبير من الجنوبيين إجمالاً .

لقد استمر عرض مسرحية « طريق التبغ » سبع سنوات على خشبة مسرح برودواي وكان هذا بمثابة حبة حنظل أخرى لسكان الجنوب البيض الذين اتهموا كولدويل بالتشهير بهذا الجزء من الولايات المتحدة .

يطلق كولدويل على كتابه الأخير « قصارى جهدي » اسم « سيرة حياة بيولوجية » ، والواقع أن هذا ليس كتابه الأول في عالم الذكريات . ففي عام ١٩٥١ صدر له كتاب

تحت عنوان « سموا هذا تجربة » وكان هذا حسب تعبير الكاتب نفسه عبارة عن « سيرة حياة ذاتية أدبية » .

وكتاب قصارى جهدي ـ يتحدث عن حياة الكاتب ، فيبدأ من وصف سنوات الطفولة لابن أحد رجال الدين . ورسمياً يمكن القول أن كولدويل الشاب لم يحصل على تعليم عالٍ ـ مجرد عدة دورات في الكلية . ولكنه اكتسب معارف عميقة من خلال عمله في مزارع القطن وقيادته لسيارة رابطة الشباب المسيحي أو عندما كان يسجل الأهداف في مباريات البيسبول أو من خلال خدمته كحارسٍ شخصي لسائح صيني أو كطباخٍ في أحد المقاصف أو كمسجل أهداف في البيلياردو .

في العشرينات ينتقل كولدويل للعيش في ولاية مان ومنذ ذلك الوقت وهو يكرس نفسه للأدب .

كان صدور أول روايتين للكاتب وبالأخص رواية «طريق التبغ» مفاجأة مثيرة في عالم الأدب ، وقد حسنت هاتان الروايتان من وضع مؤلفهما المادي وشجعتاه على أن يجرب نفسه في مجالات أدبية جديدة .

وفي الفترة الواقعة مابين أواسط الثلاثينات ونهاية الحرب العالمية الثانية قلت مؤلفات الكاتب الروائية . ولكنه نشر مجموعة كاملة من المؤلفات الإجتماعية التي تصور الحياة القاسية للناس البسطاء . وفيما بعد تلتها أعمال الكاتب التي كرسها بشكل أساسي لكتابة ملاحظاته عن رحلته في بلدان أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي (أثناء عمله مراسلاً) لمجلة «لايف» في موسكو في فترة حزيران ـ أيلول من عام ١٩٤١، كتب مقتفياً آثار الأحداث كتابين أحدهما تحت عنوان « موسكو تحت النار » والآخر تحت عنوان « ألقي كل شيء على سمولينسك » (وقد صدر الكتابان في عام ١٩٤٢) وفي عام ١٩٤٢ ألف رواية تحت عنوان «خلال الليل كله» ـ والرواية تتحدث عن حركة الأنصار خلال الحرب الوطنية العظمى) .

وبعد الحرب عاد الكاتب إلى نشاطه في ميدان الأدب الروائي ، وأخذ على مدى سنوات عديدة يصدر بمعدل كتاب واحد في السنة .

وحسب تقييم النقاد كانت كتب هذه الفترة أضعف من كتبه السابقة . بيد أنها استمرت في شعبيتها وسط القراء وعلى الأخص في أوروبا .

وفي سيرة حياته الذاتية الأخيرة يعدد الكاتب « الإتهامات » التي وجهت له على مدى سنوات عديدة ـ فيجد نفسه أنه كان بليداً ومرهفاً وعنيداً وأنه كان يجد لذة في تعذيب الآخرين كما كان دائماً يتشبث برأيه » . وعندما سألته عن رأيه بهذا الخصوص ، بدأ أرسكين كولدويل يتحرك باضطراب في مقعده وقال :

كنت دائماً أعتبر أن عملي أهم من كل شيءٍ آخر ، ومن الجائز انني كنت أضطر لأن أكون أنانياً فلا أفكر إلا بهذا العمل .

(١) الأكر مقياس للمساحة يساوي ٤٨٤٠ ياردة مربعة أو نحو أربعة آلاف متر مربع .

عن زاو بيجوم السوفييتية
العدد ١٦ (١٣٩٧) ـ ١٩٧٨
تاريخ (١٧ ـ ٢٣) نيسان ـ ١٩٨٧
موسكو

قصة قصيرة

محمد المنصور الشقحاء

يوم آخر للحزن

أهل انا فعلا بحاجة الى كمية من الحزن حتى أعيد حساباتي ، وأخفف من سرعتي ، قد يكون في الأمر مغالطة ، انما الاحظ أن حالة الوجوم أخذت تحتل مساحة كبيرة من بيدر أيامي . لم يعد للفرح النصيب الكافي بعد أن كان المسيطر بعدته وأعداده على نمطي المتلهف بأن أكون في كل الثنايا بسمة رقيقة ، رعد هادر ، نداء يستحلب صديد الأيام .

تذكرته انني وحيد مع حلم موبوء له أطراف كما الأخطبوط عمياء تمتص رحيق الحياة من الأشياء التي تصادفها ثم تختفي .. . بعيدا عن العيون والشك يقتلها ، يزرع سهامه المسمومة في أعماقي ويكون السقم الأصفر واغفاءة النوم .

تذكرت ذلك والطريق الطويل يحتويني في سفر آخر نحو التلاشي مبتعدا وصوتك يقول (انها محاولة للهرب) . تذكرت أنها المرة الثالثة للهرب ، لن أجزم بأنها محاولة لانهاك قواي حتى أتقدم بشكل واقعي ملموس بعيدا عن الأحلال التي أحلق معها هرباً مما أنا فيه ، انهم يمتصون رحيق الزهور يعبثون بأزهار الحديقة ويطلقون الأصوات النشاز لقتل كل ماهو جميل ، وها أنت تمارسين ذات الدور .

- أعرف .. لماذا الغياب ..
- وما ادراك ؟ ..
- وقوف .. رفيقاتك وحيدات ورحيلهن دونك ..
- اني تعبة ..
- وهل هذا التعب .. يدفعك الى الهروب حتى مني ..
- اجل ...!..!

تردد صدى (أجل) في داخلي ثم طفح على السطح ، لم يكن معي آخرون ، انما انتصب فوق المقاعد المحيطة بمكتبي ، هياكل آدمية وأخذت الأصوات المحيطة ترتفع مجلجلة تناقش أمرا لا أدركه واذا بأحدهم يتقمص صوتك ، يعلن بشكل افتزازي انسحابي غير الانساني متخليا عن مواقعي المتقدمة للغزاة الذين أخذوا يهدمون المنازل ، يغتصبون النساء ، يقتلون الأطفال ، يقنصون الأرض . .

أخذت أتلفت يمينا وشمالا أتابع الجماجم المتحركة فوق هذه الهياكل راصدا حركة كل فك ومتابعة ما يخرج من كلمات وغبار ، امتلأت الغرفة الخالية الا مني بالغبار وقصاصات الورق والحروف والعبارات المتناثرة وأزير رياح منتصف شباط تصفع واجهات الدور وتحطم أغصان الأشجار اللدنة ..

- لن انتظر .. أكثر
- .. ..
- لقد أصبح الموقف صعبا ..
- وماذا بيدي .. أنت في حل من أي ارتباط
- بهذه السهولة .
- أبدا انما حتى لا أكون سببا في تعاسة الآخرين .
- اذا ..
- اذا أعلن موتي للمرة الثانية وهذا الاعلان يعطيك حكم التمتع بالحرية الكاملة واختيار البعد الآخر .

الضجيج يرتفع والكلمات المتداخلة لم تعد تجدي بعد أن تباينت المواقف واخذ الائتلاف يتفتت ويصبح محاور ، كل محور يناقش قضية جانبية بعيدة كل البعد عن قضيتنا ووقفت وقد وضعت يدي على أذني ثم أغمضت عيني وغادرت مكتبي .. أخذت أزيح ما يعترض طريقي من نفايات الطريق الى الباب طويل يحتاج الى آخرين لم أحاول فتح عيني أو رفع يدي من على أذني مستخدما كتفي وصدري ومقدمة حذائي ، الاحتجاجات ترتفع ، وانهيار الأكوام التي أمامي تصدر أصواتا مما يؤكد أنها بقايا أناس مازالت فيهم بقايا ونبض ..

وشعرت أنك بقربي أصابعك العظيمة انغرزت في خاصرتي محاولة شد ذراعي اليمنى لا أدري ماذا كان الموقف فقط صوتك هو دليل قربك مني أرتفع الضجيج ، تعاظم الوقت ، شعرت أني بحاجة الى فتح عيني لأرى ما حولي ، لم يكن هناك أحد . الظلام دامس ، السواد يلف الكون ، مازالت سماعة الهاتف على أذني . أعاود الاتصال والصوت القادم يقول لا أحد في الجانب الآخر . انني وحيد ويدي تتصلب عضلاتها ، أشعر بالخدر يدب في أطرافي ، الدم يهرب ، خاصرتي تؤلمني ، انهم يبكون ، البكاء الحار يصلني شجنا ، الظلام لا يسمح برؤية الأشياء ، لا شيء في طريقي سوى البكاء الذي أخذ يقترب أكثر ، يقترب أكثر ... يقترب أكثر .

قصة قصيرة : صادق عبد الرحيم

الريح .. والذكرى

ـ خذي هذا الصندوق .

أقامت طولها ، وأمسكت وسطها بكلتا يديها :

ـ الله يتوب علينا ، وينهي هذه الرواية .

ـ قلت : خذي هذا الصندوق الآن ، واحرصي على ما فيه .

تناولت منه حمله بأعصاب مجهدة :

ـ ماذا فيه ؟

وضعته فوق كومة الأثاث داخل السيارة الشاحنة ملقية نظرة سريعة على محتواه : « آه إحرصي عليه ! ان من يسمعك يظن أنك وضعت فيه جنى العمر ، ألوفاً مؤلفة » ونوت عنها تنهيدة قصيرة وسريعة « إيه .. الألوف ورق وما في الصندوق ورق ، كله واحد » .

كانت تحدث نفسها ، وهي تروح وتجيء فوق ظهر السيارة مرتبة لوازم البيت وأثاثه بينما « عارف » يغيب داخل البيت ، ويعود حاملاً شيئاً ما ، يضعه أمامها ـ في مؤخرة السيارة ـ لتجره أو تحمله إلى الداخل . سمعها تهمهم حينما عاد :

ـ أشياء قليلة .

لم يشأ أن يرد لأنها تعرف أنهما قد بحثا معا عن مسكن يأويهما داخل البلدة دون جدوى، كما تعلم أنه لم يكن أمامهما وأولادهما سكن إلا في الشارع أو الريف ، وأنهم باتوا مخيرين بين ذلك والدخول في مشكلة مع المالك الذي شاء أن يزوج ابنه اليوم . وابتسم . « كم هم محظوظون ، كل أولئك الذين أجروه سكناً لهم ، يأتونه قبل مضي عام على استئجاره أحياناً، وهم خجلون منه ، لأنهم بحاجة ماسة الى السكن الذي سيصبح عش الزوجية لابن المالك » . وضع حمله وعاد أدراجه ، ثم توقف فجأة ، قبل أن تغيبه ساحة الدار ، وكأنه تذكر شيئاً :

ـ لا تتركي شيئاً قبل أن يستقر ، فلا يهتز أو يميل ، فيقع . يجب ألا تنسي أننا كلما رحلنا ...

قاطعته قائلةً :

ـ أي كل عام

ـ نعم ، كلما رحلنا ، وكل عام ، أضعنا ، أو سُرق لنا شيء .

ـ لا تخف .

غيبته بوابة الدار . قلبت كفيها ، ومطت شفتيها « كل شيء يجب أن يستقر ، فلا يميل أو يقع ، أما نحن فلا حاجة بنا للاستقرار » . ، فصم أذنيه . لم يكن شعوره بالملل والقهر عاد سريعا هذه المرة ، وسمع جملتها الأخيرة بأقل من شعورها . توقف وراح يتأمل فراشة وأدوات مطبخه وكتبه ، وقد تداخلت وتجاورت وعلا بعضها فوق بعض مسح عرقه .

ـ مابك توقفت ؟ .. قلت لك : كل شيء بخير ، أحضر باقي الأشياء واطمئن .

قال معتذراً :

ـ دعيني أستريح قليلاً •

كان يشعر بحاجة إلى الراحة ، ولكنه لم يتوقف طلباً لذلك « لو كان لهذه الأدوات لسان لنطقت وشكت هي الأخرى • في المرة السابقة ، سرق منه الصبية لفافة ورقية مغلفة بالقماش ، عبثوا بها ، وأتلفوها • ربما ظنوا أنها ليست أكثر من صورة زاهية الألوان • ترى هل كانوا يعلمون أنها هديته إلى عروسه ليلة زفافه ، وهل فعلوا ذلك وهم يعرفون أن الدائرتين الحمراوين اللتين رسمهما عليها تمثلان موقع قريته وقرية زوجته ؟ !

ـ ألا يكفيك هذا الوقت للراحة ؟ هيا • • أسرع قليلاً قبل أن تغرب الشمس •

تنبه من شروده ، جر قدميه نحو الداخل ، ثم عاد :

ـ خذي ، لم يبق شيء •

* * *

تحركت الشاحنة ، وبدأ ما بها يهتز ويتمايل وهو يوزع نظراته تجاه كل صوت أو حركة ينطلقان من أثاثه • واخترقت السيارة شوارع البلدة دون أن يتبين الناظر إلى حمولتها وجود « عارف » بين الأشياء ، وتجاوزت البساتين المحيطة بالبلدة وراحت تقرقع وتطرطق فوق شارع امتد كنصل سكين صدىء ، وسط أرض قاحلة جرداء •

أطلق نظره بعيداً فيما حوله ، كادت الشمس تغرق خلف سلسلة جبلية ، امتدت بعيدا ، موازية للطريق ، بدت بعض الأشجار على قممها ، وهي تتراقص ، مع اهتزاز السيارة كأشباح ، أو مثل صور مطموسة المعالم ، تشبه خيال الظل • لاشك أن المسافة التي سيقطعها إلى سكنه الجديد مديدة على قدم السائر ، ولكن السيارة ستتجاوزها خلال ساعة ، أو بعض ساعة ، فليغتنم هذا الوقت للراحة ، والجلوس فوق أثاث بيته ، قبل أن تداهمه المرحلة الثانية من التعب ، ويبدأ بانزال الأثاث وترتيبه ، وليطو قامته أمام هذه الريح بعيداً • احتوت نظراته الشاحنة وما بها ، جلس القرفصاء • أطلقت الشاحنة صوتا قويا ، وأحس بعجلاتها تتسارع ، وتثب كمصارع في حلبة • صفرت الريح في أذنيه ، وجاذبته قميصه • حلق فوق رأسه شيء ، مالبث أن ذهب مع الريح بعيداً • احتوت نظراته الشاحنة وما بها ، وسرعان ما اتضح له الأمر « لقد انقلب الصندوق الذي أوصى به زوجته خيراً ، ترى ما الذي فقده هذه المرة ، لكن أي شيء ، يكفيه إحساسه بالفقد والضياع ليشعر بالمرارة :

ـ قف •• قف •• أرجوك أن تقف

ولكن السائق لم يسمعه ، كما لم تسمعه جواره ، الداخل • صك أسنانه ، وضرب الهواء بقبضة يده « لا فائدة من الصراخ » قفز إلى الصندوق ، أقامه ووضع فوقه بعض الوسائد « لو أنها فعلت هذا لكفتة الألم ، ودفعت عن نفسها اللوم • » أتكون عاقلة إذا مافعلت ذلك عامدة ! • كثيرا ما سخرت منه ومن أوراقه (لقد حمل والدي قبلك ، من فلسطين ، كل جريدة تحدثت عن الثورات الفلسطينية وجاء بها إلى هنا • سله ، بل انظر أنت ماذا فعلت له !) • تأمل المكان جيداً عرف أن الشاحنة كانت تدور حول منعطف ، متحاشية صخرة كبيرة ، تنأت عند طرف معبر مياه صغير توسده الطريق هناك •

أحس بالتعب ، قرفص جالساً ، وما لبث

أن هب واقفاً « لماذا لم أفقد ملعقة أو قدراً ؟ إنهما ليسا وطني ، أأفقد وطني ، وأفقد ذكراه؟!» ثم تهاوى جالساً « إذا فعلت هي ذلك ، فلن تكون عامدة » •

* * *

حينما استقل السيارة الذاهبة إلى البلدة، في صباح اليوم التالي ، لم تخنه ذاكرته ، طلب من السائق التوقف عند المعبر ، ترجل ، وراح يغذ السير في أرض حصوية مستوية ، سرعان ما بدأت تصعد به الجبل ، وهو يتلفت يمنة ويسرة • علت الشمس رأسه وأدركه التعب ، نظر الى القمة « انها تبدو قريبة ، ولكنها بدت كذلك عند المعبر » توسطت الشمس كبد السماء ، مسح العرق عن جبينه ، تطاولت قامته ، واستوى ظهره الى جانب الأشجار البرية في القمة • ضحك • أيبدو الآن للبعيدين عنه شبحا ؟ ليكن كذلك ، « أنا أعرف أنني إنسان وسأبقى كذلك حتى يقترب البعيدون مني، ويتأكدون من حقيقتي ، مثلما أتأكد الآن بأن هذه شجرة بلوط ، وتلك شجرة سنديان » ••

ـ بالله • • ما ذاك ؟

قفز إلى شجرة السنديان ، توقف على بعد خطوات منها ، وراح يتأمل صفحة ورقيةعلقت بأغصانها ، وتشبثت بها ، تجاذبها الريح وتذهب بها مزقة إثر أخرى • مد يديه اليها مناجياً :

ـ الى أين تذهبين ؟ أظننت أنك المسيح ؟ ماأنت الا صورة المسجد الأقصى ، احتفظت بك لأصنع لك إطاراً ، وأعلقك في بيتي للذكرى !

تقدم منها ، نزعها برفق وهو يقول :

ـ تعالي،لقد آن لهذا الفارس أن يترجل•

عالم الشقحاء القصصي

سمر روحي الفيصل

للقاص السعودي محمد المنصور الشقحاء خمس مجموعات قصصية ، هي : البحث عن ابتسامة (١٣٩٦ هـ / ١٩٧٧ م) ـ حكاية حب ساذجة (١٣٩٩ هـ / ١٩٨٠ م) ـ مساء يوم في آذار (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م) ـ انتظار الرحلة الملغاة (٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م) ـ الزهور الصفراء (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م) . والباحث في قصص هذه المجموعات ، وهي تسع وسبعون قصة ، يصعب عليه ، اول وهلة ، الامساك بالخيوط الرئيسية فيها . لكنه ، بعد شيء من انعام النظر ، يكتشف ان المجموعات كلها تصور عالماً واحداً ، وتعض بالنواجذ على مفهوم معين للقصة القصيرة .

١ ـ العالم القصصي :

حين يتبع المرء المنهج التاريخي في الحديث عن المجموعات الخمس يكتشف أن هذا المنهج لا يصلح لها . وذلك أن ترتيب المجموعات بحسب تاريخ صدورها لقراءتها بغكية معرفة التغييرات المضمونية والفنية التي طرات عليها ، لا يقدم أية فائدة مميزة للناقد والقارىء على حد سوء . فآخر مجموعات الشقحاء مثل أولها مضموناً وشكلاً . وهذا أمر غريب لم نعهده كثيراً في القصة العربية ، حتى أنه يخيل الى المرء أن المجموعات الخمس كتبت في زمن واحد وان نشرت بين ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٧ م و ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م .

غير أن المرء يلاحظ انفتاح العالم القصصي في المجموعة الأولى « البحث عن ابتسامة(١) » . اذ ضمنت هذه المجموعة قصتين عن فلسطين هما : « المنحوسة وتذكرة سفر الى القدس » و « أوراق من مذكرات فتاة فللسطينية » . الا أن هذا الانفتاح عرضي وليس جوهرياً في عالم الشقحاء القصصي . اذ انه لم يكرر في قصصه الأخرى ـ وهي سبع وسبعون قصة ـ أي حديث عن القضية الفلسطينية ، أو عن اية قضية اخرى ذات مساس بالأمة العربية ، وانما راح ينكفىء الى الداخل ، داخل بطل القصة ، ليبحث عن هويته الشخصية المحلية وعلاقاته بالواقع الاجتماعي المحيط به .

وأول وهلة ، يفاجأ المرء، اذا تبع المنهج التاريخي ، بالعالم القصصي لمجموعة « البحث عن ابتسامة » . فهو عالم النساء وليس عالم الرجال . والمراد ، هنا ، ان هذه المجموعة تصور معاناة المرأة السعودية وتقدم وجهة نظرها في الواقع الاجتماعي ، وتسعى الى تحديد كيانها . غير ان المراة تغدو في المجموعات الاخرى شيئاً من معاناة الرجل ، لأن المجموعات الأربع الأخرى تصور عالم الرجال وتجعل النساء يعشن في ظلاله . ولهذا السبب فان المنهج التاريخي يعلن ، ثانية ، اخفاقه في التعامل مع عالم الشقحاء القصصي ، لأن قرأءة المجموعة الخامسة « الزهور الصفراء »(٣) قبل المجموعة الثانية « حكاية حب ساذجة » (٢) لا تغير من طبيعة العالم القصصي وان تباينت المجموعات في التركيز على عالم النساء وعالم الرجال .

يخلص المرءالى أن المنهج التحليلي خير المناهج في التعامل مع قصص الشقحاء . وهذا المنهج يضع بين أيدينا حقائق ادبية عن عالم الشقحاء القصصي ، يستطيع باحثون آخرون اختبار صدقها وشمولهالاية مجموعة منالمجموعات الخمس ان لم نقل : اية قصة من قصص هذه المجموعات وأبرز هذه الحقائق كون عالمالشقحاء القصصي محدوداً ضيقاً . فشخصياته تتحرك في الطائف ، وحين تغادر هذه المدينة تذهب الى القرية (٤) أو الى الرياض العاصمة . وعلىالرغم من الثبات في المكان فان المرء لا يستمد من قصص الشقحاء ملامح الطائف أو القرية أو الرياض . بل انه يستطيع بسهولة وضع اسم آخر بدلاً من الطائف دون أن يتغير شيء في طبيعة هذه القصص . ولسنا راغبين في التمسك بهذه الملاحظة ، لأننا نعلم أنها ليست نقيصة خاصة

بقصص الشقحاء ، وانما هي عامة تكاد تشمل القصة والرواية العربيتين . فحس المكان مازال ضعيفاً في النثر القصصي العربي ، فلا خصوصية فيه ، ولا يكاد القاصون والروائيون يعيرون بناءه أهمية توازي اهميته في الواقع العربي الذي يمتحون منه مضامين أعمالهم . والمشكلة أن عالم الشقحاء القصصي لا يشكو من هذا النقص وحده ، فهناك ضيق آخر في حركة الشخصية عنده . ويتجلى هذا الضيق في انها قعيدة المنزل او مكان العمل او المقهى او الملهى او الطريق (٥) ولهذه المفردات امتدادات عدة هامة ، لكننا نكتفي هنا بالقول ان ضيق المكان العام (المدينة) واكبة ضيق في المكان الخاص (العمل – المنزل..) بل ان هناك ضيقاً آخر في المكان الخاص . اذ يكاد منزل الشخصية يقتصر على غرفة النوم او على غرفة التلفاز ، كما يقتصر مكان العمل على غرفة المكتب . وقد يكون ضيق البيئة المكانية عاملاً من عوامل نجاح القصة اذا كان هدف القاص التركيز على علاقة المكان بالحوادث ، او خلق المؤثرات في سياق القصة ، او التعبير عن ارتباط المكان بأخلاق الشخصيات وسماتها .. لكن محمد المنصور الشقحاء لم يحاول توظيف المكان ولا الاستفادة من الحيز الضيق الذي تحركت شخصياته فيه .

على أن هناك تفسيراً آخر ، هو ربط ضيق المكان بعالم الشخصيات القصصية . فالقارىء يلاحظ بسهولة أن غالبية الشخصيات تعمل في احدى الوظائف . وهي ، في عالم الموظفين ، رقم من الأرقام . تشعر دائماً بالوحدة والملل والرغبة في تغيير الوضع المادي . كما انها – في الأعم الأغلب – لا تؤدي عملاً منظوراً فتعاني من الفراغ ، او انها مصابة بالخواء الداخلي ومن ثم تروح تسقطه على عملها فتخفق فيه كما اخفقت في علاقتها العاطفية . ولهذا السبب تهرب الى المقهى او مشاهدة التلفاز او اللعب «بالورق» والبديهي في وضعها المادي والنفسي الا تكثر حركتها في المكان ، وأن تحمل دوماً الرغبة في هجر الوظيفة الى اخرى طمعاً في الحصول على الثروة ولا يخالج المرء اي شك في أن عالم الشقحاء القصصي عالم الموظفين المخفقين الذين يشعرون بالملل ويضجون من الفراغ ويسعون الى التواصل الانساني مع الآخرين . وهذا يقودنا الى دلالة محددة ، هي أن عالم الشقحاء ضيق مكانياً لأنه ضيق مادياً . ولسوف نضيف الى هذا التفسير ذلك الاخفاق الدائم في علاقة الرجل بالمرأة . لكننا ، هنا ، قادرون على أن نفسر حركة الشخصيات خارج الطائف بالرغبة في التجديد وتحسين الوضع المادي (٦) . فهذه الشخصيات تهاجر الى الرياض للعمل غالباً (٧) ثم تعود الى الطائف حاملة شيئاً من المال . وقد تهرب من الطائف عائدة الى القرية مهدها الأول ، حتى ان هناك حوادث قصصية تغيب الشخصيات فيها سنوات طويلة ثم تعود حاملة المال وملاحظة التغيير الذي طرأ على الطائف . كما أن هناك حوادث أخرى تستقيل الشخصية فيها من الوظيفة لأنها لا تلائم الطموح المادي الذي يعتمل فيها (٨)، أو ان الوظيفة لا توفر المكانة الاجتماعية التي رنت الشخصية اليها طوال حياتها .

واللافت للنظر ان الوحدة التي تعاني منها الشخصيات تنبع من الفراغ العاطفي . بل ان حركة هذه الشخصيات مرتبطة في غالبية القصص بالمرأة ، سواء أكانت الحركة في المنزل أم الوظيفة أم الهجرة لطلب المال والمكانة الاجتماعية . وعلى الرغم من الحاح قصص الشقحاء على ربط المال بالمكانة الاجتماعية ، الا أن الشخصيات لا تعاني من الفاقة ، ولا يشعر القارىء أن عالم الشقحاء هو عالم الفقراء ، وانما يشعر أن الشخصية متوسطة الحال دوماً ، وأن مللها في عملها صادر من الخواء الداخلي ، من فقدان المرأة ... وهذا وحده يفسر ذلك السعي المحموم الى المرأة حبيبةً وزوجةً وأماً ، كما يفسر الاخفاق في العمل بالاخفاق في الحصول على المرأة . ومن ثم تكثر في عالم الشقحاء القصصي حوادث الشك في المرأة، وتذكر الحبيبة القديمة ، والخلافات الزوجية ، تعدد الزوجات ، والزواج دون حب ، والخيانة ، والعودة الى الأم وتذكر آثارها (٩) . وهذه المفردات تبدو دائماً داخلية ، تهجس الشخصية بها في العمل والمنزل ، وحيدة وبين الأصدقاء . حتى انه يصدق وصف قصص الشقحاء بأنها قصص الرغبات الداخلية للشبان الموظفين ، وهي رغبات مكبوتة تؤثر في العمل وفي الحياة الزوجية وفي علاقة الشخصية بالواقع الاجتماعي عموماً . وحين يبحث المرء عن مسوغ اخفاق العلاقة بين الرجل والمرأة لا يعثر على شيء . فالقصص لا تعلل الاخفاق وانما تتحدث عنه وكأن اقناع القارىء به ليس من مهمتها . لكن الرجل يبدو دائماً مركز العالم القصصي . فهو الآمر الناهي ، المحب ، الباحث عن المرأة ، الساعي الى استمرار الحياة في صورة البحث عن الأولاد ، والذكور منهم خاصة . وهذا التمركز حول الرجل هو الذي يوحي الى القارىء بأن القصص تكرر نفسها ، وتلوك مشكلتها الوحيدة ، مشكلة العلاقة بالمرأة . بل ان محمد المنصور الشقحاء حرص كثيراً على

تسمية شخصياته بأسماء محددة لا تكاد تتغير فأسماء غالبية الرجال عنده هي : صالح ـ محمد ـ خالد ـ فهد ، وأسماء غالبية النساء هي : نورة ـ حصة ـ فاطمة ـ فاتن ـ مريم .

هل يشير ذلك كله الى عالم قصصي يتسم الرجل فيه بجهل المرأة فيحاول الكتابة عنها سعياً وراء معرفتها من وراء حجاب ؟ ... ربما كان ذلك صحيحاً ، الا ان الواضح في عالم الشقحاء القصصي ذلك الضيق في دلالات الحوادث القصصية ، حتى ان المرء لا يكاد يجد دلالة اكثر وضوحاً وتأثيراً من جهل الرجل بالمرأة . كما أن الحب لا يستوي على الجادة في هذه القصص، فهو يتصف دوماً بالاخفاق شأنه في ذلك شأن العلاقة الزوجية والعمل . يعبر ذلك عن واقع الطائف ؟ لا يملك المرء اية اجابة لجهله بالواقع الذي يتحرك الشقحاء فيه . غير انه يشعر في أثناء القراءة بأن القاص يمتح من خياله بأكثر مما يمتح من واقعه . فالعالم عنده مقبور على العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة ، ويكاد يخلو من المجتمع الذي يؤثر في هذه العلاقة . وكنا أشرنا الى الضيق في المكان ، ولعلنا قادرون الآن على ترسيخ الاشارةنفسها بالنسبةالى الشخصيات والحوادث القصصية .

٢ ـ تقنية القصة :

الواضح ان محمد المنصور الشقحاء يكتب القصة دون أن يعير القارىء ما يستحق من اهتمام . ذلك أن بناء القصة عنده لا يضم اية محاولة لاقناع القارىء بما يعرضه عليه . فهو يقدم له حدثاً غير واضح الملامح ، لا ينمو في السياق ، ولا يضم القدرة على الايحاء ... صحيح أنه يعتمد كثيرا على التداعي ، لكن التداعي ليس منظماً عنده ولا يقود الى اية دلالة ، ولا يتضمن العمق الفكري الذي يجعله تعبيراً عن عن نوع معين من الحياة النفسية والاجتماعية . ومن ثم ليس هناك اتقان لتقنية التداعي . بل ليست هناك اية عناية بالتركيز والتكثيف وهما ابرز تقنيات القصة الحديثة ، اضافة الى فقدان وحدة الانطباع في قصصه . ويعجب المرء حين يقرأ القصة فلا يخرج منها بشيء . ولا تتغير النتيجة بعد معاودة القراءة والتدقيق ، وكأن القاص الشقحاء يقصد الى ذلك قصداً . وما هو اكثر ايلاماً أن تفتقد غالبية القصص وحدة الحديث . فالمرء يقرأ عن شيء ثم يلاحظ أن القاص نقله الى شيء آخر دون ربط بين الشيئين ، مما جعل بنية القصة تصاب بالخلل نتيجة افتقارها الى وحدة الحدث .

ولأن قصص الشقحاء تستوي في هذه الملامح الفنية الباهتة اعتقد المرء انها كتبت في زمن واحد اذ ليس من المعقول في الواقع الأدبي أن ينشر المرء خمس مجموعات قصصية دون أن تنمو قدراته الفنية فيقبض على تقنيات التركيز والتكثيف ووحدة الحديث والانطباع . ويعجب المرء اكثر حين يقرأ صوغين لقصة « الوباء »(١٠) دو أن تتغير القدرة على المعالجة فيهما. . والواضح أيضاً أن القاص الشقحاء ملتزم بالسرد بضمير الغائب في قصصه كلها تقريباً .. لكنه يألف كثيراً السرد الانشائي ويأنف من السرد الخبري وهو عماد القصة القصيرة . ومن خلال السرد الانشائي تراه يكثر من ذكر عبارات الملل والوحدة والفراغ ، لكن القارىء لا يطالع حوادث تنم عن ذلك او تجسده . ويبدو أن حس المغامرة بالشكل الفني للقصة القصيرة ضعيف لدى الشقحاء،ولهذا السبب لم يغادر السرد الانشائي وضمير الغائب الا مرات قليلة جداً . ففي مجموعة « البحث عن ابتسامة » لجأ في قصتين (١١) الى ضمير المتكلم ، كما لجأ في مجموعة « الزهور الصفراء » الى تقسيم النص الى مقاطع تفصل بينها أرقام (١٢) أو علامات اخرى(١٣) . وما عدا ذلك فان المرء لا يعثر على اية محاولة لتنويع البناء الشكلي للقصة .

تشذ عن الأحكام السابقة أربع قصص ، هي : الموت ـ اوراق اليانصيب ـ الرحيل النهائي ـ انتظار الزمن الآتي . فهذه القصص متماسكة موحية ذات دلالة ووحدة في الحدث والانطباع ، ولا ينقصها كثير من التركيز والتكثيف . فأوراق اليانصيب (١٤) مبنية حسب تقنية المقاطع . كل مقطع منها يعبر عن مشهد يتعلق بالصبي بائع اوراق اليانصيب او بالمرأة الشقراء ومرافقتها . وتتوالى المشاهد بتوتر ، فهي قصيرة لا تتجاوز خمسة أسطر غير مرة واحدة . وتروح من خلال التركيز تعرض ما تم قبل الانفجار وبعده، متخلية في المقاطع الثلاثة الأولى عن السرد المنطقي والنسق الزمني الصاعد ، عائدة اليه بعد ذلك ، منتهية الى مفارقة تعلنها الصحف في اليوم التالي . انها قصة جميلة . بل انها أجمل قصص المجموعات الخمس . ولا تضاهيها القصص الثلاث الأخرى في الجمال ، لكنها تدانيها في التماسك والقدرة على الايحاء . فقصة « الموت »(١٥) تبدأ من نهايتها ، من عودة البطل الى منزل والدته ، ثم تكر راجعة الى البداية ، وتمضي تطرح تلك العلاقة البريئة بين البطل وحبيبته فائقة حتى

ينقلب ظهر المجن فتموت فائقة دون أن يعلم البطل أنها كانت مريضة وأنها تعمدت تأجيل زواجها منه لمعرفتها أن أيامها في الحياة معدودة . ومن خلال هذه العلاقة تصور القصة الحب دافعاً الى النجاح في الحياة العملية ، وتجعل فقدانه سبباً في النكوص الى الوراء كما فعل البطل حين ترك الرياض وعمله الأدبي والصحفي فيها عائداً الى منزل والدته ، ممزقاً صورة فائقة بعد قرعة باب منزل والدته . والقصة نفسها تشير ، من جانب آخر ، الى بناء فني أشبه بالقصة المدورة التي تنتهي من حيث تبدأ ، وكأنها تسير حول دائرة .

وليس من المفيد التوقف عند القصتين الأخريين(١٦) لأنهما لا تقدمان جديداً في التقنية الفنية خارج ما أشرنا اليه في قصتي « أوراق اليانصيب » و « الموت » . ذلك أن المرء راغب في القول ان القصص الاربع — وهي جيدة بأي مقياس فني ومضموني — تعد دليلاً على أن محمد المنصور الشقحاء لا يفتقر الى الموهبة القصصية، ولا القدرة على بناء القصة بناءً فنياً سليماً . ومن ثم يغدو تعليل الثغرات — القليلة والكثيرة — في القصص الأخرى سهلاً . اذ انها تفتقر الى التدقيق ، وتحتاج الى شيء غير قليل من الريث والأناة في أثناء كتابتها ومعاودة النظر فيها . ولعل القاص الشقحاء يكتب نصوصه دون أن يسأل نفسه : ما الذي أريد قوله ؟ وهل يصل ماكتبت الى القارىء اذا اتبعت هذا الأسلوب ؟ وربما احتاجت لغة الكتابة الى قسط وافر من هذا التدقيق . فالقاص لا يدقق في بناء الجملة ، ولا استعمال علامات الترقيم ، ويترخص في أحايين كثيرة — في اللغة . فالجملة التالية — على سبيل التمثيل لا الحصر — تفتقر الى الدقة اللغوية : « هذه الجملة ترسبت في أعماقه كثيراً على الرغم أنها حديثة العهد بالنسبة لمواقفه »(١٧) . وبقليل من التدقيق تغدو الجملة المذكورة سليمة متماسكة . فـ « على الرغم » تتعدى بـ « من » ، كما تتعدى « بالنسبة » بـ « الى » ولا تتعدى باللام(١٨) . وقد تكررت هذه الخطيئات وأمثالها(١٩) في قصص الشقحاء كثيراً، ولا يحتاج التخلص منها الى جهد ووقت كبيرين.

الاحالات :

(١) : صدرت المجموعة عام ١٩٧٧ ، والاعتماد هنا على الطبعة المنشورة عام ١٩٨٥ في الدار السعودية للنشر والتوزيع — جدة .

(٢) : منشورات نادي الطائف الأدبي — الطائف ١٩٨٤ .

(٣) : صدرت هذه المجموعة عام ١٩٨٠ ، والاعتماد هنا على الطبعة الثانية الصادرة عن الدار السعودية للنشر والتوزيع — جدة ١٩٨٥ .

(٤) : لا يطلق القاص على القرية أي اسم على الرغم من انه يكرر ذكرها كثيراً .

(٥) : يصف الشقحاء الطريق بأنها طويلة ، ويحافظ على هذه الصفة دائماً . كما أن الطريق عنده خالية الا من بعض الاطفال .

(٦) : انظر على سبيل التمثيل لا الحصر قصة « انهم يبحثون عن الزهور » في مجموعة « حكاية حب ساذجة » .

(٧) : انظر على سبيل التمثيل لا الحصر قصة « الموت » في مجموعة « انتظار الرحلة الملغاة » الصادرة عن القصة السعودي — الرياض ١٤٠٣ / ١٩٨٣ م .

(٨) : انظر على سبيل التمثيل لا الحصر قصة « النتائج المرتقبة » في مجموعة « انتظار الرحلة الملغاة » .

(٩) : الأم في غالبية قصص « انتظار الرحلة الملغاة » متزوجة من غير زوجها الأول ، ومتخلية — راضية أو مضطرة — عن اولادها منه .

(١٠): انظر ص ٥٥ و ٦١ من : انتظار الرحلة الملغاة .

(١١): هما قصة « أوراق من مذكرات فتاة فلسطينية » وقصة « المرسوم » .

(١٢): انظر مثلاً قصة « الزهور الصفراء » .

(١٣): انظر استعمال العلامات في القصص التالية : البحث عن بقية — في انتظار الحافلة — اهازيج ميلاد جديدة — أوراق اليانصيب — رجل يبحث عن وظيفة — اوراق من يوميات امراة عاملة — الليل الذكرى المرتخية — الصورة .

(١٤): انظر ص ٤١ من : الزهور الصفراء .

(١٥): انظر ص ٩٩ من : انتظار الرحلة الملغاة .

(١٦): انظر قصة « الرحيل النهائي » وقصة « انتظار الزمن الآتي » في مجموعة « مساء يوم في آذار » — مطبوعات تهامة — جدة ١٩٨١ .

(١٧): انظر ص ١١٤ من مجموعة « مساء يوم في آذار » . وانظر نموذجاً آخر في ص ١٣ من مجموعة : «انتظار الرحلة الملغاة».

(١٨): انظر تكرار الخطأ نفسه في الصفحات : ٢١ — ٣٣ — ٦١ — ٧٥ — ١٠٨ — ١٢١ من مجموعة : مساء يوم في آذار .

(١٩): من ذلك : الصدفة — الفشل — معلنة عن — مأن — بدون — سوى أن هناك أوراق مساءاً — غير مبالي ....

«شائعة»

قصة : اعتدال رافع

تسري الشائعة مع الهواء. تتقاذفها الشفاه. تتخطى الحدود الى أماكن قصية مسكونة بالعفاريت والجن والأنصاب والاطلال واوبرا والأوابد التاريخية والمستحاثات والناس المتعبين:

« ● منية القلب مجنونة . جنونها خطر . لا تقربوها لأنها ممسوسة . يوم الخميس موعد حمامها ، دلقت ماء فعلياً على الارض دون أن تتعوذ من الشيطان الرجيم وتبسمل وتستأذن الأسياد . تضايق الجن الذين يسكنون تحت بلاطات حمامهـا ، وغضبوا من عبثها وقلة اكتراثها .. ولطشوها .

يالطيف .. جنون النساء مخيف اكثر من جنون الرجال .

الله يثبت علينا العقل والدين »

ومنية القلب تنفي جنونها نفياً قاطعاً ، وتؤكد ان لا علاقة للجن فيما حدث لها ، وان كان هذا الحدث الرهيب الذي ربطوا جنونهـا به قد توافق مع موعد حمامها .. فمن قبيل الصدفة فقط . وتعترف انها دلقت ماء فعلياً فوق بلاطات الحمام . فعلت ذلك وهي مستعجلة، ومعاذ الله أن تكون ملحدة !! تجاوزت طقوس دلق المياه المغلية فوق الأرض ، وكان همها منصباً على تنظيف بلاطات الحمام من الحيوانات المنوية التي قذفتها الزواحف والحشرات لايقاعها في الشرك الذي أوقعت به صديقتها كريمة من قبل ، ومنذ موت كريمه الذي اكتنفه الغموض، اصبحت منية القلب مسكونة بهاجس « تحبل البنت من بلاطة الحمام » . لذلك صوّبنت أرض ارض الحمام وغسلتها سبع مرات حتى أصبحت لامعة ومصقولة كمرآة .

لا اثر للحيوانات المنوية عليها :

منية القلب « سبيعية » وتحب رقم ٧ .

رقم ٧ مفتوح الذراعين الى الأعلى ومتأهب للعناق دائماً ، لا يتعب من تسبيحر به . اشياء واشياء تحشر في عناقه عنوة .

الله خلق الدنيا في ٧ أيام .

وعلى كل حبة رز ٧ آيات قرآنية .

والمقاتلون والمغامرون يأخذون صور تذكارية وهم يرسمون بأصابعهم .. ويضحكون .

تتعرق منية القلب .. وتزفر تعبهـا . تسفح جسدهـا فوق أرض الحمـام ، تخلـع « محبسها » ، وتحـل شعرها الطويل مـن دبابيسه . تغتسل وهي مطمئنة تماماً :

الاطمئنان ضروري في الحمـام ليكتشف البنات جمال أجسادهن .. ويفنينه .

غطاها بخار أبيض ، وصارت جزيرة نائية ملفحة بالغيم . تراقصت أطياف رطبة فـوق شفاهها واهدابها كان لها شكل جياد راكضة . امتطت جواداً . عانقت خاصرتيـه بجسدها . وانطلقت في مدى السحب .. وغنت :

الغناء في الحمام يجلي الغم عن القلوب .. وانجلى غمها . تشرب جلدها بالماء ودلكتهبكيس الحمام الخشن وفصلت عنه تراكمات اللهات والغبار . غطته برغوة الصابون . تطايرت فقاعات الرغوة . كانت تراقبها فرحة وتنفخ عليهـا . تتأرجح الفقاعات بين انفاسها والجاذبية .. ثـم تحط على جسدها وتنفلش .

الفقاعات نجوم والماء مطر وجسدهاالأرض . يتجسد حلمها . تراه وتشمه ويتدفق فيعروقها مع الدم . هي هكذا دائماً ..

تحلم ، تعيش حلمها وتتنفسه . حتى عندما يأخذها النوم ، تنام وهي مفتوحة العينين . . ويقولون عن نومها « غزلاني » ، وهي لم تر غزالاً نائماً أو راكضاً الا في أدغال الحلم .. وعينيها . وتصدق منية القلب احلامها اكثر مماتصدق خوفهـا .

« ــ منية القلب وقحة تغني في الحمام !!

ـ لماذا تغنين يامنية القلب ؟
ـ حتى لا يجف الماء عن جسدي » .

* * *

« النظافة من الايمان » .
صارت منية القلب نظيفة .

خرجت من الحمام ورذاذ الماء يتساقط من نهايات شعرها ووجهها عابقاً بالصبا . في تلك اللحظة التي اقتربت فيها من المرآة لتمشط شعرها ، لا تدري ماذا حل بها . للوهلة الأولى خيل اليها انكسرت مع المرآة وتبعثرت ، وتناثر صراخها في كل مكان ، وخرج من شقوق النوافذ والأبواب ، وكف عقلها أن يكون عقلاً ، وتحولت الى غريزة . بينما كانت ترفع يدها بالمشط الى رأسها ، طوقتها جثه ترتدي ربطة عنق وملابس داكنة . ضغطت الجثة بقسوة على يدها التي كانت تمسك بها المشط . انفرست أسنان المشط في كفها واحدثت فيه ثقوباً حمراء .

ـ الصراخ فضيحة .

طقطقت الجثة بكفيها الفائرين وخطفت شفتي منية القلب من مكانهما وضغطت عليهما بأسنانها الصفراء .

ـ الجثث ترفل باكفانها في القبور لا تتحرك وتمشي وترتدي ملابس الاحياء .

ولم يصدقها أحد .

وحكموا عليها بالجنون .

طافت بها امها والجارات على اضرحة المباركين وأصحاب الكرامات . رقوها ، وحملوها التعاويذ والحجب ، وبخروجها بدخان « بذور نبات الحرمل وكشة الثوم والنعناع اليابس وأوراق الأشجار الخضراء » . دمعت عيناها ، وسال انفها ... وبقيت ممسوسة .

ولا علاقة للجن فيما حدث لها .

منذ ذلك اليوم ، اصبحت منية القلب محاصرة . الجثة تقتفي انفاسها والشائعات تلاحقها . وهي تركض وتصرخ وتدافع عن الجن .. لوحدها . وعيناها مسكونتان بالغزلان ، والمروج لم تراوح قلبها ، ولكنها كانت تضيق على ركض الغزلان أحياناً . تسمع مهبل جياد يناديها ، تعانق الصهيل ، وتتشرنق داخل نفسها ، وتصبح كثيفة .. ناصعة الحرير .

ولا ترضخ لبرودة الجثة والاحكام الجائرة .
ـ أنا لست مجنونة .. امتحنوا عقلي ان لم تصدقوني . اذا سألتوني عن الحب .. فالجواب جاهز على راس لساني ونهاياتي المتوفزة : أحب الله وأنبياءه وأنتم والشرطي وساعي البريد وموظف البلدية .

ـ كاذبة لا تصدقوها .

وبالفعل كانت منية القلب تكذب . حبها الدفين . رغباتها المضرجة ، خبأتها في الشرايين ، لحرصها عليها . والحرص نابع من العقل .

كانت تخاف عليها من المصادرة والاعتقال .. ماباحت لأحد بحبها للجياد والفراشات والغزلان وحصى الينابيع المفلطحة ورائحة التراب بعد المطر وجزر الغيوم الوردية في السماء عند الغروب والألوان الليلكية . كانت تعتقد ان مثل هذا البوح لا يعبر عنه بالكلمات ، وانما بالانطلاق والرقص والطيران والغناء . وهي محاصرة بجثة وشائعات تمضغها مثل قطعة البان ، واحلامها لا تزال غضة العنق تود لو تصل شقيقتها الأخيرة الى حدود الشفاه لتنداح بخارا مع السحب .. أو مزماراً في الهواء .

عصيان غير معلن .
وتوغل في غابات الحلم !!

الجن والعفاريت والجثة والناس يلاحقونها .. يهجمون عليها وتضيق انفاسها عليها . في نومها وتعبها وتنفتح القبور وتخرج الجثث بعظامها المجلودة بالبرودة تطالب بحقوقها المقدسة في كينونة الأنفاس والجسد .

تعلن منية القلب جنونها .
تنطلق وتركض وترقص احلامها ، وتغني جمال جسدها « المبلول » .

ـ منية القلب مجنونة لا تقربوها لأنها ممسوسة .
لا ..
اذا صادفتموها في الصباحات ، وعادة تكون نديه مثلها .
اشحلوا جلودكم وابتسموا لها . فجنونها ليس خطراً .
لا تصدقوا الشائعات .

دمشق ١٩٨٥

أيهــا الأخــوة

عندما يقف الانسان أمام أعمال كبيرة تستدعيه الذاكرة ليبحث في عملقة هذا الجبار ، والمركز الثقافي بأسرته يقف اليوم مع ضيوفه الذين أبوا الا أن يشاركوا في تكريم هذا الأديب العملاق الذي أعطى للمكتبة العربية عددا كبيراً من الباقات الأدبية والفكرية حتى أنها بلغت / ١٥٠ / كتاباً في القصة والرواية والترجمة وأشكال الأدب الأخرى التي كانت عناء خمسين عاماً من التبحر في شتى أصناف الكتب العربية والعالمية ، وكان النتاج كبيراً عظيما يقف أمامــه المرء باجلال لهذه القدرة المبدعة ـ الخلاقة التي غنت نغم قطرات ماء الفرات في كل كلمة حوتها سطور هذا الانجاز .

نقول كل الحب من أبناء الفرات العظيم لسفيرها في كل المكتبات العربية الأستاذ سعد صائب وتحية تقدير لكل ضيوفنا الذين شاركوناهذا الحفل التكريمي . والسلام عليكم .

كلمة : مدير المركز الثقافي العربي بدير الزور

عــدنان الناصر



كلمة الأستاذ : فاضل سفان

أعترف بأني قد تلجلجت طويلا ، والتاث بياني ، وجمحت عن قيادي الكلمات ، وأنا أعد لهذا الموقف الذي أقدم فيه الأديب العربي الكبير، « سعد صائب »

ــ وسعد ــ ابن الفرات البار ــ عميق الجذور في تربة الفرات الطاهرة كشجر طرفائه ، وارف الظـلال كأرواح غربه الحاني على الضفتين شامخ الذرا كشماريخ نخيله الباسقة .

هذا العربي لأسمر ، يستهويك في شمائل نبي ، واطلالة قديس ، وبراءة طفل وشموخ عملاق .

انه دائرة معارف حوت كل طارف وتليد ، وموسوعة تمثلت خلاصة القرائح الفكرية والنتاج البشري .

لازم صناعة الأدب ــ ولا يزال ــ اكثر من نصف قرن اذ بدا ينشر نتاجه في المجلات والصحف منذ ١٩٣٦ وهو لم يتجاوز العقد الثاني من العمر ــ أمد الله في عمره .

فقدم للمكتبة العربية ١٤٨ كتاباً في مجالات مختلفة يغلب عليها طابع الأدب .

طبع منها /٦٧/ سبعة وستون أثراً ولا يزال /٨١/ واحد وثمانون أثراً ينتظر النشر .

ومؤلفات « أبي هيثم » جنة دانية القطوف متباينة الطعوم والألوان ، فيها الحوارية الرامزة، والقصص المترجمة والمقتبسة ، والدراسات الأدبية الممتعة ، والنقد الموضوعي البناء .

ولم في الترجمة ــ عن اللغة الفرنسية ــ على وجه الخصوص ــ باع طويلة .

ولقد فتح نوافذ المعرفة على كنوز العالم الثالث الأدبية التي كانت بعيدة عن الاضواء الباهرة ، فقدم من نتاج أمريكا اللاتينية وافريقيا

السوداء ، ما يعجز عنه المتخصصون .

فكان ماقدمه اسهاماً حضارياً ، سوف يبقى شاهداً حياً على مكانة «سعد» في الريادة وصدق العزيمة وعمق المعرفة وموضوعية النقل. استهواه الشعر العالمي ، فترجمه بعبقريةنادرة وقدرة عجيبة على خلق الجو الشعري واستحضار انفعالاته ، اذ يروعك في بيانه الساحر ووهيج اشراقاته المبدعة ، حتى ليكاد يصدق على ترجماته الشعرية قول المتنبي « ابن جنى أعرف بشعري مني » .

اسهاماته في هذا المجال كثيرة منها علىسبيل المثال :

« في رياض الشعر العالمي » — ديوان الشعر السويدي المعاصر — ديوان الشعر الاسباني المعاصر — شعراء من أمريكا الجنوبية — القبس الحي « — شعراء رمزيون وشعراء معاصرون — البلابل العائدة (وهذا الأخير لشعراء عرب كتبوا بلغة فرنسية) » .

وسعد في ترجمته يبقى واضحالشخصية، متين العبارة ، بين النبرة شاعري الجرس . وعلى الرغم من كون المترجم — كما يقول الدكتور : خريستو نجم كخبير الالغام يمشي على ارض ملغومة ، وكل خطأ يعرضه للانفجار — غير أن أديبنا استطاع أن يجتاز حقل الألغام المزروعة ببراعة نادرة .

مثله الحق والخير والجمال تجسدت هذه المثل عطاء واقعياً في آثاره كلها .

وصوت العروبة واضح النبرة في كل حرف سطرته يده المعطاء قولاً وعملا اعترف به القاصي والداني .

يؤكد صديقه الدكتور مصطفى البارودي اصالة هذه النزعة فيه اذ يقول في مقدمة كتاب سعد « القبس الحي » « فهو الذي تسري في عروقه دماء أجداده الذين انتقلوا من بطون الصحراء الى ضفاف الفرات ، وهو الذواقة الذي ما يفتأ يمتع النفس بأينع تراث الفكر في الشرق والغرب وهو الكريم الذي يأبى الا أن يدعو الى هذه المائدة السخية قراء العربية .

هذه النزعة القومية سمة أصيلة فيه رضعها مع لبن الطفولة ، يقول « سعد » وهو يهدي كتابة « دراسات أدبية » « الى روح والدي علي صائب الذي قال لي ذات يوم : يابني أحب لغتك تحب أمتك فامتزج حبهما في قلبي منذ وعيت وجودهما » .

* * *

ولعل موقف « أبي هيثم » من الاذاعة البريطانية يوم دعته للاسهام في برنامجها الثقافي والاعلامي ، هذا الموقف يغني عن حديث ، حيث جاء في رده الصارم قوله « لقد قضيت من عمري الأدبي خمسين عاماً لم أذع في محطة او أنشر في مجلة أجنبية تنطق بالعربية ، فهل أتيح لهذه الاذاعة التي كان أصحابها الانكليز سبب محنتنا في فلسطين إغرائي بالحديث فيها ولو ملكتني الملايين ،

كلا وحق عروبتي أنا الذي ما خطر بقلبي ساعة أن أرتاح الى الازدواجية عند سواي طوال حياتي فكيف يرتاح اليها أدبي وقد جعلته مثالاً يحتذى لقيمي ومثلي ، ومبادئي لا يحيد عنها » حمل على كاهله قدر امته ، فكان سفيرها في الكلمة الحرة النابضة بالحياة ، فقد ترجمت مؤلفاته الى معظم اللغات العالمية .

وسعد في ترجماته الرائدة واقتباساته في عالم الأسطورة والقصة ، والشعر ، يصطاد من آفاق الفكر خير ما انتجته قرائح المبدعين في انحاء المعمورة ، ليقدم كل هذا في صمت قل نظيره ، بعيداً عن الاضواء البهرجة الاعلامية والمعارك المصطنعة بين رجال الأدب والفن .

— الم أقل لكم — سادتي الأكارم — انه خدين الفرات ، هذا النهر العظيم الذي يجري في صمت وسكينة يحمل للارض الخصب والنماء .

وسعد يؤكد الطابع الانساني في نزعته القومية متمثلاً قول الفيلسوف الالماني جوتيه « اننا اذا لم نباشر في التطلع حولنا خارج نطاق الحلقة الضيقة المحيطة بنا ، فلا شك بأننا سنصاب بعقم فني » .

ولا ينسى أن لأمته العربية خصائصها واذا كان يدعو الى أن تفتح نوافذها لنسائم العالم فهو يؤكد في حديثه عن التجديد أنه « لن يتأتى لناذلك الا باعتمادنا على أسس صحيحة سليمة تتسم وخصائصنا وترتكز على قيم ومقومات

نابعة من صميمنا ولا سيما أن لكل أمة شكلاً في الأداء يميزها عن سواها من الأمم ويدل على شخصيتها مما يدعوها لأن تعتبر أي ثورة على هذا الشكل لا تراعي هذه الخصائص ولا تصون تلك القيم والمقومات ثورة زائغة هدامة »

هذا هو فكر سعد ـ وتلك مبادئه ، يؤكدها في كل مناسبة ،

جاء في مقدمة كتابه الفريد « لم تمت الحقيقة » « كنت فيما سطرت أتحرى الصدق في التعبير واتقرى الدقة في التصوير فاعكس واقعاً مريراً لا يبرح يجبه قومي بعلله ولا يني يزحمهم بعيوبه ومشكلاته ذات الخطر » .

وفي الحقيقة فإن كتب « سعد » تحمل اثارات وتطرح تساؤلات على مختلف الصعد .

يقول الدكتور شكري فيصل ـ رحمه الله ـ بعد أن قرأ كتاب « سعد » « الشاعر الشهيد عمر حمد » :

« أن كتابك يشكل اثارة كاملة :

اثارة تاريخية تهدف الى تعميق المعرفة الدقيقة لهذه الحقبة والنفاذ الى ماوراء الذين عرفونا من احداثها وامتحان مابين ايدينا من مصادرها والوصول الى ماهو أبعد من هذه المصادر القريبة . واثارة قومية تهدف الى تعميق الصلة برجالاتنا وحركاتنا وشهدائنا .

واثارة أدبية تهدف الى وضع تراثنا الأدبي في هذه الفترة موضع الدراسة » .

وسعد هو الناقد المنصف الذي لا يملي رأيه على القارىء ولا تلزمه الآراء المسبقة .

أن آراء سعدفي النقد ترسم معالم شخصيته وتحدد مواقفه .

اراد لنا أن نأخذ عن الآخرين وبين أن «خير مافي الأخذ عن الآخرين مايبعث على التجديد والنماء وما يثير الانفعال لروعته وجماله وعمقه وما يشحذ التجربة ويخدم أغراض الحياة ويسهم في دعم قيمها » .

هذا هو « سعد » الأديب الانسان . أحب الأدب الثائر واعجب بدعاته وآمن مع الشاعر الانكولي « نيتو » بأن رسالة الأدب « أن يحيل الرغبة الى قوة فعالة وذلك عن طريق الكشف والتوعية ، ويحيل الساكن الى متحرك والمهزوم الى مناضل والعبد الى سيد ، والمحروم الى مطالب بحقه ولو بالقوة » .

لم استطيع في هذه العجالة ان اقف الا على حدود عبقرية سعد صائب وأرجو أن اكون في تقديمي هذا قد طبعت قبلة على جبين اديبنا الفذ في موقف اجلال واكبار .

وشكراً

فاضل سفان

الى صديقي الأديب الكبير سعد صائب

أنور الجندي

ياصديقي ، وأنت أنت الصديق ••• وأغانيـك كلهـن رحيـق •••

وليـاليـك كلهـن سـهاد ••• وأمانيـك كلهـن ••• عقوق •••

وأنا أنت ، في الهموم سـواء ••• عمرنـا غربة ، وهم عميـق •••

ولنحـن الأباة ، نقطـر لحناً ••• عبقرياً ، فيستفيـق الشروق •••

ونغنـي ، وفي القلـوب لهيـب ••• ونغني ، وفي الصـدور شهيق •••

يقتـل الشـاعر الأبي هوانـاً ••• ياصديقي ، ويهنـأ الزنديق •••

ولـك اليوم ، أمنيـات محـب ••• شاقه الحرف ، والمحب مشوق •••

الأربعاء ٤ / ١١ / ١٩٧٨

سعد صائب ... الإنسان

عبد المعين الملوحي

في حفلة تكريم أخيه سعد صائب

السلام عليكم ورحمة الله

أبدأ بالحديث عن سعد صائب ـ الإنسان بقراءة رسالة هيئة الإذاعة البريطانية إليه :

القسم العربي
هيئة الاذاعة البريطانية
لنــدن ـ انكلتــرا

٩/٨/١٩٨٥

الاستاذ سعد صائب المحترم :
دمشــق

تحية طيبــة وبعد ...

يسعد القسم العربي بهيئة الاذاعة البريطانية أن تساهموا بقلمكم في أحاديثه الثقافية والادبية، وهي ثلا ثة برامج أسبوعية بيانها كما يلي :

أولاً : عالم الأدب :

يعالج هذا البرنامج قضايا الأدب والنقد الأدبي ، وتتاح فيه الفرصة للنقاد للإعراب عن رأيهم في مسائل أدبية عامة ، أو لنقد أعمــال أديب بذاته أو حركة أدبية محددة • ويتسع المجــال هنا لبحث وتحليــل مختلف نواحي الإبداع الأدبي ، كما يتسع أيضاً لاذاعة مختارات شعريــة لم يسبق نشرها أو اذاعتها •

ثانياً الحديث الثقافي :

يهتم هذا البرنامج بالقضايا الثقافية (والحضارية) العامة ، والمسائل ذات الشمول الإنساني، هذا فضلاً عن القضايا الفكرية التي تشغل بال العصر وتهتم بتربية الأجيال ، وتعنى بالعلاقة بين الفرد وبيئتــه •

ثالثاً : ثمرات المطابع :

يختص هذا البرنامج بمراجعة الكتب الحديثة الصدور (في حدود أربعة اشهر سابقة على اذاعة الحديث) وقد تكون صادرة بالعربيــة أو الانكليزية ولا يكون موضوعها سياسيــاً (لأن في القسم العربي برنامجاً آخــر لعرض الكتب السياسية ومراجعتها) •

ويستحسن بطبيعــة الحال أن يكــون مضمونها مشوقاً للمستمع العربي ، ملبياً بعض حاجته إلى التعرف على الجديد •

وتبلغ مدة كل من هذه الأحاديث عشر دقائق (شاملة مقدمة الحديث والتعريف بكاتبه، فضلاً عن خاتمته) ولذا يلزم أن يتراوح عدد كلمات الحديث بين تسعمئة وألف كلمة حتى يناسب الفترة المحددة له •

فاذا رغبتم في الإسهام بحديث أو أكثــر في هذه البرامج ، فأرجوكم التكرم بموافاتنا ببعض أفكاركم واقتراحاتكم ، حتى يتسنــى لنا هنا تحقيــق التوازن المطلوب بين مــواد البث الاذاعي ، وإعداد خطة عامة نستفيد فيها من مختلف المشاركات الثقافية •

مــع تمنياتي بالتوفيق •

نبيــل حلمي اسكنــدر

المشرف على البرامج العامة والأحاديث الثقافية

وهذا جواب سـعد على رسالة هيئـة الإذاعة البريطانية :

دمشق في ١٩٨٥/٩/٤

السيد الأستاذ نبيــل اسكندر :

المشرف على البرامج العامة والأحاديث الثقافية (القسم العربي ـ هيئةالاذاعة البريطانيــة)

تحيــة طيبة وبعــد :

إشارة الى كتابكم المؤرخ في ١٩٨٥/٨/٩ المتضمن دعوتي للإسهام في أحاديث (القسم العربي) الثقافية والأدبية ، أوضح لكم مايلي :

لقد قضيت من عمري الأدبي خمسين عاماً، لم أذع في محطة أو أنشر في مجلة أجنبية تنطق بالعربية ، فهل أتيح لهذه الإذاعة ـ التي كان أصحابها الانكليز ـ سبب محنتنا في فلسطين ، اغرائي بالحديث فيها ولو ملكتني الملايين ؟

كلا ••• وحق عروبتي !

أنا الذي ما خطر بقلبي ساعة أن أرتاح إلى الازدواجية عند سواي طوال حياتي ، فكيف يرتاح اليها أدبي وقد جعلته مثالاً يحتذى لقيمي ومبادئي لا يحيد عنها ؟

ختاماً ، أرجو قبول عذري مع صادق تحيتي !

سعد صائب

هذا جانب مضيء من مواقف سعد صائب القومية ، إنه لم ينس بعد سنين عديدة وعقود مديدة مافعلته بريطانيا بالعرب وبفلسطين •

وهكذا يبدو لنا سعد قومياً عربياً نبيلاً في هذا الموقف إضافة الى مواقفه القوميــة الكثيرة في دفاعه عن اللغــة العربية الفصحى وعن الأدب الأصيل ، نحن الذين نشهد وأسفاه أكواماً من أدباء العرب وشعرائهم يقفون على أبواب الإذاعة البريطانية ليذيعوا فيها أحاديثهم وينشدوا فيهاقصائدهم لقاء دريهمات معدودات•

تلك هي الصفة الأولى في سعد الإنسان ألمحت بها إلماماً ونقلتها في اختصار شديد •

فما هي الصفة الثانية ؟

أنتم يا أبناء الفرات أدركتم ما بقي مـن نهر الفرات قبل أن يذله السدويخضعه،أدركتموه كما كــان يوم قال فيــه النابغة الذبيــاني : (الديوان ٢٢ ـ ٢٣ ـ ٢٤)

فما الفرات إذا جاشت غواربه
ترمي أواذيه العبرين بالزبـد
يمده كـل واد متـرع لجب
فيه حطام من الينبوت والخضد
يظل من خوفه الملاح معتصماً
بالخيزرانة بعد الأين والنجد
يوماً بأجود منه سـيب نافلة
ولا يحول عطاء اليوم دون غد

وأرجو أن يعذرني النابغة إذا نقلت بيته الرابع من مدح النعمان بن المنذر بالكرم إلى تسجيل سجية سعد صائب بالإباء فأقول :

يوماً بآنف من سـعد وعزته

ولا يحول اباء اليوم دون غد

هذا سعد في خلقه الثاني ، خلق الإباء على الضيم والعنف في الحق ، لقد شرب ماء الفرات ، واستحال هذا الماء الطيب إلى دم أبي شريف ، فأنت ترى فيه صورة هذا النهر • وقد جاشت أمواجه فغمرت الضفتين بالماء والزبد وسالت الأودية من حوله تحطم الأشجار واعتصم فيه الملاح بسكان السفينة وهو مرهق يكاد يغلب على أمره •

أنا أعرف ياأخي سعد أن خلقك الأبي هذا كلفك الكثير الكثير وأنك تعيش بسبب من هذا الإباء عيشة تقتير ، ولكنك كتبت باباك وكبريائك وشممك اسمك بأحرف من نور •

وما نفع الإنسان إن كسب الدنيا وأضاع شرفه ؟ وما جدوى الكلمة ان خسرت نظافتها وربحت العالم ؟ وسعد في خلقه الثالث بعد الوطنية والإباء إنسان وفي • تستطيع أن تعتمد على وفائه واخلاصه كما تعتمد على شجرة سنديان تسند إليها ظهرك •

فهي ثابتة لا تتزعزع • وأنت تجد في سعد في كل أحوالك وأحواله الأخ الصادق الوفي الذي لا يتزعزع • ما أزال أذكر يوم سافرت إلى الصين وودعني في المطار فاذا هو يبكي حزناً على فراقي أكثر مما بكى أهلي ، وما أزال أذكر يوم عدت من الصين مشلولاً أشبه بميت ، أنه بكى بدموع غزيرة أكثر مما بكى أهلي • كنا ثلاثة : أنا وسعد وأخونا المرحوم علي خلقي • كنت أنا وسعد نسبق علياً إلى مجلسنا الصباحي في حديقة السبكي ، نمد عيوننا الى باب الحديقة الشمالي ننتظر اطلالة علي علينا كما ينتظر المحب إطلالة الحبيب • ومات علي منذ سنين ، وما أزال أشعر أن سعداً ما يزال ينتظر علياً ، ما يزال يمد عنقه وعينيه إلى باب الحديقة الشمالي يترقب اطلالة علي ••• وهيهات هيهات ياأبا هيثم •

أقول لك سراً أرجو ألا يطمعك بي بعد اليوم • لقد كنت أوفر حظاً من أبي تمام حين بحثت عن صديق فوجدته فيك وحين بحث أبو تمام عن مثل هذا الصديق فلم يجده فقال :

من لي بانسان إذا أغضبته
وجهلت كان الحلم رد جوابه
واذا طربت الى المدام شربت من
أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصغي للحديث بقلبه
وبسمعه ولعله أدرى به

لقد تمنى أبو تمام مثل هذا الصديق وعاد خائباً أما أنا فقد وجدت فيك هذا الصديق ، فأنا به قرير العين :

أنا أغضبك أحياناً وأجهل عليك أحياناً • وأنت تحلم عني وتسامحني ، وأنا أشرب من أخلاقك ، وأسكر من آدابك ، وأنا إذا حدثتك أصغيت إلي بقلبك وسمعك وربما كنت أعلم بحديثي مني ،

فأنا سعيد بك • غني بصداقتك •

وتسألونني :

أأنت في كل مبادئك ومواقفك ومشاعرك توافق أخاك سعداً ؟ ويوافقك أخوك سعد ؟ وأقول لكم في صراحة :

طالما تخالفنا وتعارضنا وتنازعنا في قضايا كثيرة : منها القضايا القومية والأدبية والشخصية ولكن صداقتنا كانت تزداد توثيقاً وقوة بعد كل خلاف ، ألم يقل شوقي : (مجنون ليلى ص٩)

ما الذي أضحك مني   الظبيات العامرية ؟
ألآني أنا شيعي   وليلى أموية ؟

اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية !

لقد اختلفنا في كثير من الأمور ولكنا اتفقنا على أمر واحد هو أن نبقى صديقين :

ألم يكن الطرماح بن حكيم ، شاعر الخوارج ، والكميت بن زيد ، شاعر الشيعة صديقين حميمين ؟ !

هذا سعد في صفاته الكبرى كانسان :

- قومي عربي

- إنسان أبي

- صديق وفي

ياأخي يا أبا الهيثم :

طالما أغضبتك وجهلت عليك ، ولعلي في هذه الكلمة الصادقة عنك كل الصدق ، أرضيك بعض الرضا ، هذه الكلمة التي ألقيها في دير الزور بلدك المنجاب - بلد أستاذنا الفراتي • وعلى ضفاف نهرك المبارك ، نهر الفرات •

فسلام عليك وعلى بلدك وعلى الفراتي وعلى الفرات •والسلام عليكم ورحمةالله وبركاته

دمشق - دير الزور ٥ / ١١ / ١٩٨٧

عبد المعين الملوحي



سعد صائب والحرية

حسين حموي

مقدمـة :

صقر ونسر وباز ، جمعتهم دوحة الأدب والابداع على ربا قاسيون .

الصقر نهض من رياض ديك الجن الحمصي يحمل سيف خالد بن الوليد وما زال يحمل هذا السيف في شعره ونثره انه الأديب الكبير عبد المعين الملوحي والباز نهض من ثرى قاسيون يحمل راية مروان ، داهمته السنون فانساق مطواعا للقاء وجه ربه انه الاديب الكبير علي خلقي والنسر ضرب بجناحيه رمال الصحراء محلقاً في الأجواء باتجاه قاسيون وهو الاديب الكبير سعد صائب الذي نحن نجتمع اليوم لتكريمه مازال يحث الخطا باتجاه المجد ، بقلم نظيف لم يصدأ ولم تثلم كانوا ثلاثة، عبد المعين الموحي وعلي خلقي وسعد صائب ، اينما بحثت عن واحد منهم وجدته مع أخويه ، يجمعهم قاسم مشترك واحد هو حب الوطن والانسان ويوحد بينهم هدف واحد مشترك هو الارتقاء بالثقافة والأدب والابداع الى المستوى اللائق بين الأمم الأثنان بكيا صديقهمـا الباز وقد اختطفتـه أظافر المنية ذات يوم ، وشهدت بكاءهما على رحيل صاحبهما في دمشق ومازال الصقر والنسر يفردان جناحيهما في سماء دمشق ، يحطان معا في دار الثقافة عند صديقهما وصديق الأدباء على اختلاف مشاربهم الأستاذ مدحة عكاش أمد الله في عمرهما ولا أعرف ماذا يقال عن نسر الفرات في يوم تكريمـه ؟

أيها الأخـوة الحضور :

لعلني أقـول :

عندما تلوح ملكة الضياء بيديها من وراء الأفق البعيد ، أو تطل من نافذتها المطلة على البحر الرحيب ، يكون نسر الفرات قد اشتعل قنديله وراح يصب في أوردة تلك الأوراق البيضاء شيئا من دمه الصافي .

هكذا هو دائماً في كل آن ، وفي كل مكان ، فراشة تسبق خيوط الضياء الى تلك الضفاف،

ونحلة لا تعرف الكلل أو الملل ، وهي تتنقل من حقل الى حقل ، ومن زهرة الى زهرة . ونسر لا يسكن الاعالي القمم . يفرد جناحيه على السفوح في الوقت الذي يشاء ، ويضرب بهما الجوزاء كلما زاده الحنين والشوق للاقتراب من الشمس وذرا المجد العليا هو يكره الأضواء المزيفة ، والأماكن العابقة بالضجيج ، لأنه من عشاق الحرية ودعاتها .

يمسك ريشته عندما تبدأ شرايين الحياة وأوردتها بالنبض الانساني ، ويقلب صفحاتها عندما تبتسم ذوائب الشجر لعناق أول موجة ضياء تحمل على أكفها انسام الدفء الصباحي . يتبادل مع مفردات الطبيعة والحياة والثقافة العالمية النظرات والتحية . ثم يسبر أغوار تلك المفردات . وينقب في معانيها ومدلولاتها كاشفاً عن الحسن منها، دالاً على مايصلح لحياتنا وأجيالنا، ناهياً عن كل مايسيء الى حضارتنا وثقافتنا .

يبدأ رحلته كل يوم قبل أن تصافح الأشعة اللاز وردية سطوح الأشياء التي تصل اليها ذراع الشمس ، لتوقظها ، وتبدأ مسيرتها الحياتية المعتادة .

قبل أن تبدأ تلك الأفنان رقصاتها الفجرية على أنغام الريح ، وقبل أن تعانق أول جديلة من جدائل تلك الحورية الخارجية من المحيطات الى أبعد الفيافي . وشرفات المنازل العالية ، قبل أن تنفتح تلك العيون الغافية الحالمة بصباح جميل له نكهة القرنفل والياسمين ، يرف ذلك الطائر بجناحيه في عشه الطري الناعم ، يغرد كبلبل ، ويصوت مثل كنار ، ويهوى على ضالته كنسر قبل أن ينتقل العالم أو نصفه على الأقل من رحلة السكون الى مرحلة الصيرورة والحركة ، وقبل أن تبدأ العصافير مهرجانها الصباحي ، مغردة على شكل أسراب وجماعات منتظمة من هذه الشجرة الى تلك ، تنشد نشيدها الوطني الصباحي احتفالا بقدوم ملكة الضياء ووصولها في أول هودج من قافلة الصباح قبل أن يهرع الناس الى أعمالهم وتبدأ عجلات الحياة دورتها المنتظمة في مدار الكينونة والصيرورة ، يكون نسر الفرات فارداً أوراقه وجناحيه على صخرة من صخور حضارة ماري الشاهقة ، يجول ببصره وبصيرته في رحاب تلك الأزمنة الممتدة على امتداد الرؤيا ، يتقرى تلك الآثار العظيمة التي أودعها في اعناقنا الاجداد وينقب في صفحات ذلك الماضي البعيد ، ينخل التراث ، فيشير الى كل مأثرة أو فضيلة أو ملحمة جسدت تصميم الانسان العربي في أن يصنع حضارته بارادته وحديثه ، محاولاً بذلك ربط الماضي بالحاضر ، والمستقبل ليحقق عملية التواصل بين الأجيال ، ويجعل من المثاقفة بين الشعوب منهجاً لكل الشعوب التي تتطلع الى بناء مستقبل أرحب لأجيالها القادمة .

انه سعد صائب نسر الفرات الذي مابرح يرف بجناحيه على أفنان الفوطة ، وعلى ضفاف الفرات ، وفي كل أرض يعشقها ويعشق التحليق بجناحيه في قضائها، انه سعد صائب الذي لايحب القيود ، ولا يألف الا الطيران الحر ، ولا يقبل عن الحرية بديلا ، فالحرية عنده كالفضيلة فطرة وطبيعة وعقيدة . والأحرار في نظره هم وحدهم الذين يعيشون الحرية بكل أبعادها يقول نسر الفرات في احدى المقابلات الصحفية التي أجريت معه جواباً عن سؤال حول رأيه في الحرية : « ان مفهوم الحرية لدي هي أن تكون كالفضيلة فطرة وطبيعة ، وعقيدة ، تحمل طابعنا وشخصيتنا وتصون كرامتنا ـ نحياها ـ ونؤمن بها كضرورة، نواجه بها ، لا مشاكلنا الخاصة فحسب ، بل مشاكل العصر الذي ندور في فلكه، وبقدر ماتحمل من قيمة ، بقدر ما تنعكس على التحولات التي تطرأ على بنيتنا الاجتماعية ، فتزيد من سعادة مجتمعنا ، وتدعم مزاياه ، وتنمي نظامه الخلقي الذي يسير على نهجه ، وبذلك يبدع حقيقته التي يعيشها متفاعلاً فيها من نحو ويقول الحقيقة التي يحسها ويجربها بارادته من نحو آخر ، فهي اذن تعلمه وتهديه وتبهجه في آن معاً وفي هذه الحال فهي توافق الالتزام الايديولوجي والواجب ولا تعارضها . لأنها قدر ذاتي ارادي لكل مواطن ، ولعل خطورة الظروف التي تمر بها أمتنا تحتم عليها أن يكون أفرادها أحراراً ، كيما يتاح لهم أن يتحرروا من النظام الاجتماعي المتخلف الذي يخنق قواهم ويعطل طاقاتهم ويهدر امكاناتهم . وأن تتحرر من التجزئة المصطنعة التي قطعت أوصال الجسم الواحد ، وتتحرر من كل العوائق الرجعية التي تحد العقل ، وتمنعه من التجدد والابداع ، وتغل المجتمع بقيود العادات والتقاليد البالية التي لم تتجاوب مع الحياة .

أما مايتصل بحريته الذاتية فيقول : انا أكتب ما تمليه علي هذه الحرية ، وأحس أني فيما أكتب أوجه كتابي الى مواطنين متحررين انسجم معهم وأحيا ما يعانون من مشاكل لذا ترى حياتي متطابقة أشد التطابق مع أفكاري »

من هذا المنطق يعد نسر الفرات (الأديب سعد صائب) نموذجاً للكاتب الذي كرس حياته للدعوة الى حرية قومه والدفاع عنها . وخير شاهد على ذلك الظاهرة التي تميز بها أديبنا الكبير نسر الفرات سعد صائب عن اقرانه وأهل زمانه ماقاله الشاعر شفيق جبري في مقدمة كتاب (ذوب الروح) : «اني لا أستطيع أن أختم هذه المقدمة دون أن أعرب عن اعجابي بأدب الأستاذ سعد صائب ولست أريد بالأدب زخارف البلاغة وانما أريد به استخدام صاحبه اياه في التنبيه عن كل باطل ، وتقويم كل اعوجاج ، والتغني بكل حرية ، وما نظن أن الأديب خلق لغير هذه الأمور وامثالها ، خلق الأدب ليكون سيداً ، ولم يخلق ليكون عبداً والأستاذ سعد صائب في مقدمة الادباء الذين يمثلون الأدب السيد ان الحرية التي يؤمن بها ويدعو اليها سعد صائب حرية شاملة لا يحد آفاقها اي نوع من أنواع القسر والاضطهاد . انها حرية ملتزمة تنطوي على التحرر الكامل من جميع أنواع الاستغلال والاستعباد ، وتنطوي في الوقت ذاته على تفجر كافة الطاقات والامكانات المبدعة في الانسان كي يعطي ويبدع وينتج ويضيف أشياء جديدة على ماخلقه له السلف ، بمعنى أن يكون فاعلاً مؤثراً في حركة الحياة والمجتمع ، قادراً على التغيير والفعل في بنية المجتمع والنهوض به من حالة السكون الى حالة الحركة ومن حالة التقليد الأعمى أو المراوحة في محاريب العادات والتقاليد لكل ماهو معيق ومثبط لعملية النهوض الحضاري السائدة الى آفاق التجديد والتغيير والرفض التي ينشدها أديبنا الكبير سعد صائب الذي خبرته الحياة وخبرها جيداً فأصبح يمتلك من الحكمة ما يؤهله لأن يكون رائداً من رواد تأصيل الثقافة العربية الحقة على أسس موضوعية علمية تحافظ من خلالها على هويتها وخصوصيتها القومية ، وتفتح نوافذها على الثقافات الأخرى تتفاعل معها . تأخذ منها وتعطيها ،تغتني منها وتغنيها بما لا يسمح لأية ثقافة مهما بلغت من القوة أن تمحو معالم تلك الحضارة العربية والثقافة القومية .

ان المتتبع لما كتبه الاستاذ سعد صائب ونشره تحت عنوان (نداء الى المثقفين الثوريين) الذي يتوجه فيه الى الطليعة المثقفة ، وقد ضمن تلك النداءات أفكاره وتجربته في الحياة ، يدرك غنى التجربة والأرضية الفكرية التي يستند اليها هذا الأديب الكبير ، ويتلمس في الوقت ذاته حرصه على أن يأخذ المثقفون الثوريون دورهم في تربية الأجيال وتنشئتهم التنشئة الوطنية والاخلاقية الرفيعة . ومن يرجع الى تلك النداءات التي تتجاوز الخمسين نداء ، يتلمس الروح الصادقة والرؤيا الحركية الثورية التي يتمتع بها هذا الكاتب الذي نضجت تجربته الأدبية والسياسية فأصبحت كلماته ومختاراته من الأداب العالمية تزخر بالحكمة والالتزام والثورة .

اسمحوا لي أن أنقل مقطعاً قصيراً من تلك المقتطفات الكثيرة التي يحث فيها الاستاذ سعد صائب المثقفين الثوريين لكي يأخذوا مواقعهم الحقيقية في عملية التغيير والتطور الاجتماعي يقول الكاتب في أحد النداءات « الطليعة المثقفة يجب أن تعي ذاتها ودورها في العالم ، لا تتصرف تلقائياً أو اندفاعاً في تيار ، وانما عن فعل وارادة وعن ادراك بأنها هي المسؤولة في النهاية عن مستقبل الانسان في الارض . وربما فيما وراء الأرض .. وهي اذ تقبل على ذلك وتقوم به انما تستقي أجر وجودها ، وتؤكد سمو وظيفتها .. اذ لا منجى للنخبة من أن تكون قدوة في الحياة للسمو بالحياة ، وهل ثمة أقرب اليها منها ، فاذا لم تسم بها فمن يسم بها ؟ انها العالمة بالأمور المدركة أحوال الناس القادرة على دفع الشر عن نفسها وعنهم ، انها في النهاية الحكمة بعينها لأنها تلخص الحياة التي تحياها وتختزلها في قانون يهدي الحياة وينير طريقها ، هذه الطريق التي يسلكها من رام سعادة وابتغى انتصار سلطان العقل »

هكذا تتوهج الحكمة والعقلانية والثورية في ثنايا كلمات أديبنا الكبير سعد صائب ، وهكذا اختار لنفسه هذا الرهب المتهجد في محراب الأدب أن يفني جسده وعمره من أجل انتصار الكلمة الموقف وانتصار الحقيقة والحق على الباطل والشر مهما امتلكا من أسباب القوة في هذا الزمن الصعب الذي أصبح فيه المالك المدافع عن الحقيقة كالقابض على جمرة من نار ، لم يداهن أحداً في رأي هو مناقض له ، ولم يصانع في موقف لم يكن له فيه اختيار واضح ، ولم يقبل على الموائد أو يقف على أبواب صانعيها طالباً حاجة أو راجياً فائدة ، وانما اعتكف في صومعته على أدبه وترجماته ، يؤلف ويبدع ويترجم الى أن قاربت أن تصل مؤلفاته ومخطوطاته الى رقم خيالي يقترب من /١٥٠/ مؤلفاً بين كتاب مطبوع ومخطوط . تتوضح بين سطور تلك المؤلفات شخصية هذا الأديب المتفاني في خدمة الأدب والثقافة بعيداً عن كل الأضواء والمحافل التي يكثر فيها الصراخ والضجيج يبقى أن نقول ان ماقدمه الاستاذ سعد صائب الى المكتبة العربية

من مؤلفات يحتاج الى دراسات معمقة تندرج تحت دراسات متخصصة تتناول فلسفة هذا الكاتب وكلمته ومفهومه للثقافة وللحياة ، والمعاني العميقة لترجماته المتعددة التي نقلها بلغة مشذبة سلسلة عذبة الى لغتنا العربية،وتأخذ كل جانب من تلك الجوانب بالبحث والدراسة .

هنيئاً لأبناء الفرات بابنهم الكاتب والاديب الكبير سعد صائب هنيئاً لهم بكل الابناء البررة الذين يسيرون في قافلة الفراتي وسعد صائب وكل المخلصين الطيبين في هذه الأرض الطيبة ذات الامتداد الحضاري الغابر ، والتاريخ الثقافي المجيد وهنيئاً لكل الاقلام النظيفة ، والأعلام الشريفة التي أضاءت دروب الظلمة للأجيال القادمة بعدها بكل الحب والاخلاص والتفاني / **والسلام عليكم**

عشية دمشق

١٢ ربيع الأول ١٤٠٨ ٣/١١/١٩٨٧

سعادة الأخ الأديب سعد صائب المكـرم :

تحية اكرام لك ولمكرميك في« الدير »
وفي كل ديار ..

ومعذرة لابراقي العابر بنية الاشراق ..

منذ أخبرتني .. وأنا أجاهد الجهات : لأكون بين هؤلاء الاحبة الاكارم ، الذين يشاركون بحفل المركز الثقافي العربي في « دير الزور » .. ولكنه : « الحظ العظيم » من الصقور شديدة المحال ، ولا يقارب محظوظا الا وفـق مقتضى الحال . .

واقتضت حالي : أن ابرق لك اتجاهـاً شرقيا الى « دير الزور » .. وأن افكر من اجلك اتجاها غربيا الى العاصمة الاوروبية – باريس واعذرني لتحديد الجهات ، اعتبارياً .. وتقبل ما أنقله اليك :

أنقل اليك بهذه « البرقية الشرقية » ما أفدناه من الاتصال الغربي ، فقد نظر الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية بما عرفتهم بـه من مؤلفاتك التي تجاوزت منتصف المئة الثانية ، صاعدة نحو المئتين .. وبالأخص : المترجمات ..

وهذا « الاتحاد العالمي .. » ، يعتبر اعضاءه ، اما من العرب الذين اغتربوا وخدموا العربية في بلدان الاغتراب .. واما من غير العرب الذين استعربوا وخدموا اللغة الشريفة العربية في أوطان استعرابهم ..

ولما كنت حالة نادرة : ممن نقلوا الى العربية عديداً من الآثار العالمية ، فقد اعتبروك عضـو شرف في هذا الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغـة العربية ، الذي تأسس في باريس ، سنة ١٩٨٠ بغاية«جمع شمل المفكرين العالميين باللغة العربية» كما حدد هذه الغاية رئيس الدراسات العربية والشرقيـة في جامعـة ستراسبورغ ، الدكتور توفيق فهد .. في احدى رسائله ..

وقد جاء في هذا « الاعتبار » ، عشيـة احتفالنا بذكرى المولد النبـوي الشريف ، في دمشق ، قلب الحياة العربية الحي .. الثلاثاء : الثاني عشر من ربيع الاول ، السنة الثامنة بعد أربعمائة وألف .. الموافق ٣ / ١١ / ١٩٨٧ ..

ويسعدني أن أبعث اليكم هذا النبأ صحبة الأخ الأديب الشاعر ، صاحب « الثقافة » ، اسبوعيها وشهريها .. الأستاذ مدحة عكاش.. ليكون نوعاً من المشاركة مع مكرميك الأكـارم.. أكرمك الله وأكرمهم ..

فكل عام وانتم بخـير

ومبروك « لاتحاد المؤلفين باللغة العربية في العالم » : عضويتكم التي انتدبوكم لها ، فهي ستكون مزية له ، لأنكم مزية فائقة الاجتهاد في جميع ثقافات العالم بهـذا الحرف العربي العزيز . .

وتحية للمركز الثقافي العربيفيدير الزور.. وللأدباء المشاركين في حفل تكريمكم ..

وأكرر معذرتي لابراقي ..

وأرجو اعتبار نية الاشـراق : للتحدث عـن مزاياك الأدبية وعالمية تطلعاتك الى ما يتلألأ في تألقات الكشف : لدن موهوبي الشعوب ، لتضعها في خدمة أبناء شعبك ..

أظنني في مقدمة «ديوان الشعر السويدي» عرفتك واحداً من الذائقين الصادقين الأحرار ... وسأعرف بمعرفتي في مناسبات أخرى ، ان شاء الله ...

ألتقيك بعد العودة الى دمشق ، وفي مؤتمر اقبال ، واحياء ذكراه العاشرة بعد المئة ، في مثل يومي تكريمك«الأربعاء والخميس»..القادمين..

أطال الله عمرك وعمر عطائك النافع لأجيال الانسان ، والسلام عليكم أجمعين .

أسعد أحمد علي

أمين « الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية »

دموع الفرح تعانق الأديب الكبير سعد صائب في حفل تكريمه

مهيدي عبد القادر

● للمرة الأولى في تاريخ مدينة دير الزور، يكرم أديب فراتي أثناء حياته تكريما لائقا يحضره أدباء معروفون من القطر. فبعد تكريم الشاعر الكبير – محمد الفراتي – بعد رحيله، يكرم الأديب – سعد صائب – بمناسبة مرور خمسين عاماً على عطاءاته الأدبية الثره، والذي تجاوزت كتبه ضعف عمره البالغ سبعين عاماً.

– بالأمس، وبحضور جماهير غفيرة من ابناء محافظة دير الزور، وعلى رأسهم السيد المحافظ – نديم عكاش – وثلة من أدباء القطر، كان في مقدمتهم الأديب السوري المعروف صاحب ورئيس تحرير مجلة الثقافة الأسبوعية الغراء – الشاعر – مدحة عكاش – بدأت المظاهرة الاحتفالية باشادة الادباء من خلال كلماتهم التي ألقيت – حضورياً، أو نيابة عن بعضهم الذين لم يتمكنوا من المجيء لأسباب قاهرة – بالآثار الأدبية الجمة للأديب سعد صائب، والتي ستساهم في تنوير الفكر العربي للأجيال النابتة،

– بالأمس، سمعنا أصواتاً محلية، أظهرت براعتها فاضل سفان – جمال علوش، محمد عبد الحدو، في تبيان مناقب الأديب وأعماله، كالشعراء – أضافة الى الأدباء الضيوف، الأستاذ، مدحة عكاش، عبد الغني المطري، بديع حقي، عبد المعين ملوحي، د. أسعد علي والكاتب جمال عبود، ابراهيم كيلاني، حسين حموي، عبد المجيد التجار. كل هذه الأسماء، أجادت وأفادت بما قدمته من لمحات عن حياة أديبنا وفكره.

● **دراما متاججة :**

فجرها الأستاذ – مدحة عكاش – عندما ارتجل كلمته في المسرح بكل جراة ولباقة أدبية، ألهبت مشاعر الحضور، وأثارت عاصفة من التصفيق، حباً واعجاباً لما قدم به صديق عمره الأديب صائب، حينما خاطبه بروح الصداقة الأخوية، وقدم له ثلاث هدايا، تعتبر لفتة كريمة من أديبنا، ووساماً رفيعاً لا ثمن له..

– أولى تلك الهدايا كانت، اصدار عدد خاص عن حفل التكريم.

– وثانيهما، طباعه مخطوطة جديدة للأديب سعد صائب لم تنشر من قبل. وبمعدل ألفي نسخة، نصفها للأديب، ونصفها الآخر لجمهور دير الزور، وفاء من الأديب مدحة وتقديراً منه لأبناء الفرات..

– وثالثها، وأجملها، تلك الهدية التي أججت عواطف الحضور، وجعلت دموع الفرح تنساب على وجنتي الأديب سعد، وزميله مدحة، الذي أهداه أغلى قبلة سيظل حنينها منقوشاً على جدار ذاكرة محبي الأدب.

– تلك هي الأمسية الرائعة التي عشناها على مدى يومين متتالين والتي طبعت بصماتها على سور الأدب المتين – الأدب الملتزم، الشامخ كذكرى الحرمون وجبل الشيخ وقاسيون. والذي تمثل في عطاءات الأديب العربي الكبير – سعد صائب – الذي قدم عبر ترجماته عن الفرنسية، أفكاره الغزيرة، ينبوعاً أدبياً ثراً ستتذكره الأجيال العربية طويلاً.

● **مرحى لمن كرم سعد :**

مرحى للمسؤولين في المركز الثقافي العربي بدير الزور، ولجمهور الدير الوفي الذي كرم أدبية، ومرحى لكل الأدباء الذين أتو للمشاركة، وخاصة من تكبدوا عناء السفر من بعيد، وكلنا أمل في أن تحذو جميع محافظات القطر الأخرى، حذو دير الزور، لأن تكريم الأديب حياً، يعني تكريم الانسان والحضارة، تكريم الأدب الذي هو قائد الامة وباني صرح مستقبلها العظيم. ومرحى عميقة للأديب سعد في كلمته الرائعة التي أبكت الحضور دمعاً وأبكته مثل ذلك..

مهيدي عبد القادر – دير الزور –

تحيّة

بقلم : جواد المرابط

لؤلؤة الصحراء ، جل باريها
فيها الفرات العذب ، كأهلها فيها

تشعشع دوماً في تغانيها
بالروعة حاضر فيها وماضيها

فيها العروبة قد حقت أمانيها
فهي التي تكرم (سعدها) تيها

(صائب) الأفكار في معانيها
ببلاغة القول في تساميها

دمشق تحييكم رأهلها فيها(٢)
تكرمه معكم ، في نواديها

من حق المواطن الذي ينفخ في مواطنيه روح التسامي ويكون ذا شخصية المعية ، ويمتاز بجهاده الأدبي ، وهو انموذج بأخلاقه ، من حقه أن يكرم ، لأنه في الواقع يكون أهلا للتكريم ، ولمثله خلق التكريم .

فاذا كانت لؤلؤة الصحراء ، وهي التي نبغ فيها شعراء كبار ، وفقهاء المعيون ، وأدباء نوابغ ،/اذا كانت تكرم اليوم احد ابنائها الذين من صفاته ما ذكرت ، ولما قدمه للمكتبة العربية من مؤلفات ، منها المترجم ، ومنها المبتكر من افكاره ، فانها تكون خطت أمثولة نتعطش ، لأن نرى مثلها ، في القريب ، كل مدينة عربية ، تكرم أصحاب المواهب فيها .

لنذكر دائما ان عماد كل امة لنهضتها انما هو رجالها المخلصون أصحاب المواهب فيها . هم في الحقيقة مثارات الأماني ومباعث الآمال ، ليجعلوا أمتهم بالقول أهلا لان تأخذ مكانتها بين الأمم .

خرج المحتفى به الى العالم ، رأى بنفسه وبعينيه ، فانتقى النافع ، وفكر بعقله ، ومارس الحياة ، واطلع على ماقدمه العلم والفكر من نظرات جمالية . لذلك نرى في مجموعة ماخطه قلمه ، بمؤلفاته البالغة مئة وثمان وأربعين كتاباً ، روضة من الافكار ، تتعانق اغصانها ، وتغرد اطيارها ، وتتألق أزهارها .

ماخط قلمه ارضاء لاصحاب جاه ولا لكسب عن طريق الدعوة للاستمتاع بالحياة بارضاء الاهواء والشهوات . كل ما قراناه له ، فيه تشويق لحب الجمال ، والحث على الطموح ، وعلو الهمة ، وما يحرك القلوب ، لازالة بؤس البائسين ، ولمحبة الوطن . انه : اديب الكريم من الغايات .

نجد في مؤلفاته ما يزين للقارىء العطاءللمشاركات الوجدانية ،

نجد بين كتبه ترتوي النفس بالبهجة من الحياة ،

نجد بين ماخطه قلمه مايحبب صفاء النفس ورقة المعشر ،

ونجد أيضاً فيما ترجمه ما ينير العقول من مختارات ما قرأتها حتى وجدت نفسي أقول : حياك الله ياسعد !

وتأكدوا اني لم أعطه فوق حقه . لأننا في أمس الحاجة لاصحاب قلم نابهين نشطين وهم في انفسهم قدوة بأخلاقهم وسيرتهم . لذلك كان اكثر مانجده بصحبته من هم على شاكلته من أدباء أصحاب اخلاق رضية وعقول مفكرة .

وان من صفاته انه ذو عقلية هادئة متزنة ، ومزاج يؤثر الاعتدال ، وهو ما يفرض الثقة والاحترام .

تسألوني ماذا تكون هذه العقلية الهادئة المتزنة المتحلية بالاعتدال ؟ أصفها بأنها عقلية الانسان الناضج الذي يتحرر من جعل عقله مرتبطا بميوله ، ويراقب بدقة ما يبدومنه من أقوال وأفعال ، وينجز كل شيء في وقته الملائم ، ثم هو يسلم بما لكل امرىء من قناعة وجدانية، على اعتبار أن الناس يتفاوتون تفاوت الأزهار بألوانها وروائحها ، ولأن تجارب الناس اذتختلف باختلاف الوسط الذي يوجدون فيه، فهم يجعلون سلوكهم في الحياة على ضوء تجاربهم الخاصة ، وعلى ما نشأوا عليه من عادة . لذلك غدا لكل مسألة اكثر من رأي ، (وكل حزب بما لديهم فرحون) .

لذلك كان من مهمة الأدب توجيه المواطنين حتى تتوحد اشواقهم ، وتسمو نفوسهم ، وتتحد مشاعرهم ، وليتذوقوا روائع الكون في جماله ، وليؤثروا الخير ، والتزام الاعتدال ، وازالة ما يكون علق في النفوس في عهد الطفولة من أمور سخيفة واساطير ضحلة تسبب العجز والتيه في اضاليل ، بل تحول دون التبصر والعقلانية ، وأن كنا لا نعلم الا ما يقع تحت الحس ، ونحن عدا جهلنا مما وراء المحسوس ، لا نعرف الا القليل من عالم المحسوس . ان الادب - وهذه هي الناحية التي يجب أن ينصب حولها المسعى - اذ يقوم بما ذكرت ، فهو الذي يجعل الحياة في نظر متذوقه اكثر قيمة ، ويجعل الانسان ذا رغبة صادقة وعزم موطد للتقدم والنجاح ، وليكون سعيدا في حياته اذ يتطلع ليسعد غيره مع سعادته لنفسه .

لقد فهم الأستاذ سعد الأدب على انه دعوة اصلاح ، وتربية المواطن للتسامي ، ولمعرفة حقائق الحياة ، حتى يعيش سعيدا في مجتمع سعيد .

وما تكون السعادة بحق انها سعادة ، الا اذا نفخت في الانسان ما يكون به حقا انه انسان، بثقته بنفسه ، وبالكريم من مقاصده ، والجميل من أفعاله ، حتى اذا شاخ ، او اعتزل الحياة ليتدبر مامر عليه في فتوته وشبابه وكهولته ، حدثته أحلامه همساً شبيهاً بهمسات النسيم على ضفاف الفرات في الليالي المقمرة .

والى المستمعين النجباء من الناشئة أقول ان ميدان التكريم فيه من المتسع مالم يكن لمن سبقكم من جيل ، مادمنا في سبيل ما نسير عليه من تقدم حضاري . علما بأن سعادةالامة وسبب مجدها ، ان يكون ابناؤها أكثر وعياً وعلماً وتقدما ممن سبقهم . قال الفيلسوف الكبير ابن سينا (على المرء أن لا يقتصرعلى بلوغ غاية من الامور التي يزداد بها علماً وفضيلة وبما يقدمه من اعمال بارة لغيره ، حتى يسمو الى ماوراء ذلك ، مما هو أعظم قدراً ، وأجل خطرا ، وأسمى غاية .)

فعليكم تقع أيها الشبان الكرام المسؤولية القومية والانسانية ، للاسهام في تحقيق ماهو الأفضل ، وهو الأجدر بأن يحقق لمصلحة الامة العربية ، ولتكونوا فيها البناة الذين يهتمون بمستقبل أمتهم ، وتوحيد بلادهم ، واسترجاع ماكان لهم من مكانةرفيعة وأمجاد. بذلك تصبحون أسياد مصيركم . وكون العربي انه سيد مصيره انه انسان ذو أهداف سامية ، وفيه نفسية متطلعة للتقدم بروح فياضة منالحيوية والايمان.

واعلموا أن في شرقكم اجداداً لكم كانوا نجوماً تألقوا في سماء المعارف ، واهتدى بنورهم من قامت على أكتافهم الحضارة المعاصرة .

وقد كان من حق أمتنا الا يعترى شمسها افول ، لو أنها بقيت على ما كانت نهضت عليه من العمل عن علم ، وتبصر ، واقامة العدل ، والترابط على أساس من الخير ، والحرص على وحدة الكلمة ، منطلقها الايمان ، وقد استقر في قلوبهم ، فاعطوا الاسباب حقها ، ثم توكلوا مقدمين ، متفائلين بأن يدركوا احدى الحسنيين، جمعوا الى فصاحة اللسان فصاحة القلب والايمان . ومن ثم كانت كل أرض احتلوهاتتدفق بالخير غدرانها ، وتفوح بعبير الرحمة والعدل والاحسان ريحانها .

وأما بعد ، فيا أخي سعد ! لقد أمضيت من عمري في لؤلؤة الصحراءعامين أحببت فيها كرم أهلها في عروبتهم ، وأحببت فراتها ومن كانوا يتسابقون ببطولتهم ، ولكن ما سعدت فيها بمثل سعادتي اليوم ، اذ تقدر فيها اديباً نابغاً هو أنت . فسلام على دير الزور وارفة الجنان . وسلام على أهلها ومن فيها من أعلام فصاحة وفرسان بيان ، وسلام عليك وانت في طليعتهم وصاحب سيرة اعبق من الورد والريحان .

الاثنين ١٢ صفر ١٤٠٨ و ٥ تشرين أول ١٩٨٧

سعد صائب

أي نجم يشفع في العلياء — أي نبع يسيل في الصحراء
الفرات العظيم أضحى فراتين — ولكن تنافسا في السخاء
يالسعد التراث بالصائب القيم — أغناه أيما إغناء
خلد الفكر عبر خمسين عاما — بيراع خصب الجنى معطاء
وبنى المجد بالكتابة للاجيال — أكرم ممن بنى و البناء
لك ياسعد يارفيق شبابي — ومشيبي مودتي واصطفائي
كم تمنيت منذ عهد بعيد — أن يكون اللقاء بالأصدقائي
فالتقينا في يوم تكريم سعد — وسعدنا بجلو هذا اللقاء
فلك الشكر باجتماع الأحباء — تدانوا من بعد طول تناء

* * *

ياأسود الفرات يامن رفعتم — علم العرب فوق كل لواء
أنتم فخر يعرب فاعيدوا — لحماكم مآثر الآباء
منكم الكاتب الأديب ومنكم — علم الضاد فيصل الافتاء
منكم الشاعر الفراتي غنى — للمعالي فكان عذب الغناء
منكم الثائر الذي قارع — البغي ومنكم قوافل الشهداء
ألجهاد المرير نبت ثراكم — كان مهر الحرية الحمراء
والأضاحي جدتم بها لانتزاع — النصر حتى ضفرتم بالجلاء
وعلى درب وحدة تجمع العرب — تنادت مسيرة الأبناء

* * *

أنت ياسعد قد عهدناك خصماً — لغشوم يقسو على الضعفاء
وتعيش الحياة حراً كريماً — عامر النفس بالسنى والسناء
ما حياة الأديب الا كفاح — بمضاء وهمة قعساء
وإذا أطلق الأديب نداءً — فصداه في مسمع الجوزاء

أثر الكـاتب المجيـد ثـراء ليـس يغنـى يفوق كل ثـراء
كنـزه في الصـدور يحفـظ والأسـفار لافي خـزائن الأغنياء
مبـدأ الكاتـب الأديب جهـاد ليـس تثنيـه سطوة الأقـوياء
إن يطـل ليله فكم وجـد الماء انباصـاً مـن صخـرة صمـاء
لم تعـم ثورة على الظلـم إلا ولظـاها منـابـر الخطبـاء
قـد نشرت المفيـد من فكـرك النـير أعظـم بمنهـل القـراء
والدراسـات فصلـت ببيـان عبقـري التبيـين والانشـاء
وإذا ما نقـدت كنت حصيفـاً لا تمـاري في نقـدك البنـاء
كل سطـر يفيض نـوراً وهدياً كل حـرف سيف على الأعـداء

* * *

فلهذي الربـوع أسمى التهاني ببنيهـا الأماثـل النجبـاء
عشـت ياسـعد للثقـافة ذخراً وجـزاك الرحمن خـير الجزاء

دمشق في ١ / ١١ / ١٩٨٧ عبد المجيـد التجـار



سعد صائب

الرجل والموقف

جمال عبود

تحية وسلاما أيها الصحب الكريم :

وتحية اكبار تقدير لمن حاز بالجد والمثابرة فضل الحسنين :

فضل المبادرة بهذه الدعوة الكريمة ، وفضل نوال الشرف في احياء هذه الأمسية الكريمة .

وقد سبق القول في سابق الأزمان أن لا كرامة لنبي في بلده ، وجرياً على القول نفسه، ومن بعد التجربة والممارسة ، أمكن القول : لا كرامة لأديب في عصره . ولكن صحبنا الأكارم في هيئة المركز الثقافي ، ممثلة بمديره الأستاذ عدنان ناصر ومن آزره ، أبوا الا أن يعكسوا ماسار في المثل ، ويقلبوا الصورة التي أزقت ، فكانوا بمبادرتهم التي نحياها رواداً ومبدعي نهجلايسعنا الا أن نرجو له أن يعم ويتكرس . فهم الذين وبهذه المبادرة أكدوا ، ولكل من سمع ويسمع أن الأديب مكرم في بلده وعصره ، وهو ما يعني كرامة كل الأدباء ممثلة في تكريم أستاذنا الجليل المبدع . . سعد صائب ولكن ، من هو سعد صائب فعلا ..؟!. أهو صاحب السبعين كتاباً مطبوعاً ، مضى على طباعته أولها خمسة وثلاثون عاماً فقط (في ظلال الوعي ، ١٩٥٢) ، .؟!.،

وماذا يعني ذلك .؟!، وماذا يعني أن لديـه ، فقط ..، ثمانية وسبعون كتاباً مخطوطاً .؟!. حقاً ماذا يعني كل ذلك اذا كان هو نفسه الذي يقول :

« ماتذكـرت مرةً ملاحظـة أستاذي خليل الهنداوي ، على دفتري المدرسي ، كفى تهاوناً ، الا وندمت أشد الندم » .

وأكيد هو نادم لما فاته من حظ في المطالعة والدرس ، الأمر الذي أوجب أن تجيئه تلك الملاحظة : وأكيد انه ليس بنادم على تلك الملاحظة التي شكلت منعطفاً في حياته ..

هذا ما يقوله سعد صائب ، ياسيدي . سعد الذي جاوزت مؤلفاته المائة والخمسـين ، بين مطبوع ومخطوط . ولم لا يقول ذلك وهـو مايزال يعمل بحماس المبتدىء الذي عليه أن يركض ويلهث .. والا نسيه من الوجود حتـى الأقربون نعم ياسيدي . فما لم يركض هذا الرجل فمن أين لنا أن ندري بأنه موجود ، امـا أن تفطن اليه ولأمثاله ، وهم قلة قليلة واستثناء نادر سنكتشف عظمتهم متأخرين .. كالعادة ،، أقول أما أن تفطن اليـه ولأمثاله واحدة مـن جامعاتنا فذاك ما يبدو انه المستحيل بعينه ، حتى لو فطن اليه القيمون على جائزة نوبل ... وسعوا بها الى عنده .

وحقاً انه لأمر مستغرب ، ومستنكر . ان تفطن جامعات العالم الى امثال سعد صائب وعبد المعين الملـوحي ، فتمنحهـم الألقـاب وكراسي التدريس . هذا ممكن وقد حصل لغير واحد من أمثالهم ، اما جامعاتنا التي لم يخلق مثلهـا في البلاد .. فهذه لن يقنعها بوجوده وتميـزه الا الذي يجيئها بتلك الوريقة السحرية ، ولو حصل عليها بالمراسلة فقط..ولو كان موضوعها أعني موضوع رسالة الدكتوراه ذاتها ،، بعضـاً من كتب سعد صائب ليس غير . وصدقونـي ، ان لم يحصل هذا فعلاً ، فلا تستغربوا أن يحصل ذلك ذات يوم ، وسأشهدكم حينها على أن قراءة تجربة سعد صائب ستكون مشروعاً مناسباً لأكثر من دكتوراه ، وسترون . ولكـن الرجل نادم ، كما قال بنفسه ،، فتعالوا نـرى كم هو نادم فعلاً .

سعد صائب المولود في العام ١٩١٧ ، والذي أمضى طفولته في مدينة البوكمال ، وكان من لداته شفيق الكمالي وعبد اللطيف الكمالي ، هو الذي لم تعقه المسافات .. فكان رحالة جاب الأمكنة والبلاد ، فبلغ المانيا الغربية وسويسرا وفرنسا وبلجيكا وهولندا وايطاليا في العام ١٩٦٣ ،، ثـم طاف تركيـا وبلغاريا ويوغسلافيـا والنمسـا وايطاليا في العام ١٩٦٦ ، وبلغ بريطانيا في العـام ١٩٧٩ ، وأوفد رئيساً لوفد اتحاد الكتاب العرب الى الاتحاد السوفييتي في العام ١٩٨٠ . وهـو الذي عقدت أواصر الصداقة بينه وبين أدباء عالمين ، أخصهم كان موريس كاريـم الشاعـر البلجيكي ، والشاعرة ايفون ستيرك ، والشاعر جورج لانس . وقد ترجم لموريس كاريـم وترجم لايفون ستيرك (التي تغنت بالثورة الفلسطينية) ،، وترجم لجورج لانس كل أعماله الشعرية البالغة اثني عشر ديواناً .

نعم هو هذا الرجل ، وهو ذاته الذي نشر أولى قصائـده في الشعر المنثور مابـين عامي ١٩٣٦ ، ١٩٤٠ في مجلـة الصبـاح لعبد الغني العطري ، والرجل ما يزال يشهد على ذلـك . وهو الذي ينتظر بالرضا والمودة لكل آراءالنقاد فيه ، بل يقولها بصراحـة .. « لقد أنصفني النقـاد » ، ولماذا لا يقولها وهو الذي يؤكـد بعفوية الأطفال وصدقهم .

« .. صدقني ليس لي اعداء .. أحـب الناس جميعاً .. أتجنـب الخصومـات . انا مسـالم » . وكيف له أن يجمع بين الخصومات وطبعه المسالم وهـو الذي كان أول مـن دعا لتشكيل جمعية الأدباء العرب في العام ١٩٥٨ ،، وأول من لبى دعوته تلك : ابراهيم الكيلاني ، وشكيب الجابري ، ومطاع الصفدي ، وكانوا نواة تلك الجمعية . ولم لا يدعو اليها وهو الذي كان قد أنفق ، حتى ذلك الوقت ، مايقرب من الربع قرن في تجربة النشر التي بدأها منذ عام ١٩٣٦ بجريدة الأيام بمقال .. الشعب والحكومة أما محاضراته فلم يتأخر بها الا الى العام ١٩٤٢ ،، حيث بدأها عن الأديب الفيلسوف الفراتي القديم لوقيانوس السميسطائي ، وقد شـهد نـادي الأخوة بدير الزور أولى محاضراته ، وكان هو أمين سره .

وها هو الآن بين أيديكم ، واسمعوا اليه يقول :

● أقرأ عشر ساعات يومياً ، وأكتب ثلاث ساعات . أصحو في الرابعة صباحاً ، فأقرأ حتى

السابعة ،) بعدها أفطر .. ، ثم أتابع القراءة حتى الحادية عشرة . ثم أخرج الى حديقة عامة ، أو لزيارة بعض الأصدقاء ، ثم أعود في الثانية ، حيث أنام ساعة واحدة .. وبعدها أقرأ .

● علمتني الحياة المحبة : محبة أمتي وقومي ، وبالمحبة أقترب من الناس وأرتاح لحياتي .

● الشعر الحر لا نستطيع تسميته شعراً ، أنا أسميه نثراً فنياً ، وقد كتبه أول مرة في العام ١٩٣٦ . ومن له موهبة عطاء الشعر الحر يستطيع أن يؤثر في القارىء والسامع كتأثير الشعر المحافظ ، فالشعر عاطفة وفكر .. يؤثر ويتأثر .

● كنت اتمنى أن أكون أديباً ، وهذا مالم أحققه بعد .! فأنا مازلت أحبو ..!

● أجمل كتاباتي هي الكثير الذي لم أكتبه بعد ، وآمل أن يمتد بي العمر كي أكتب بعض ما اهجس بكتابته ..

● حبي للأطفال دفعني لكتابة قصص لهم بأسلوب أردت به أن يرتفع بمستواهم ،) وأردت أن أملأ حياتهم بالحقيقة والخيال .

● للجيل الجديد أقول : آمل لكم أن تشقوا طريقكم بابداعكم ، بحيث تستطيعون أن تسهموا في تطوير حياتنا وازدهارها وانماء وعي مواطننا وفتح آفاقه حتى يكون قادراً على مواجهة الحياة وتركيز مكانتنا في العالم ، لأننا أمة ذات حضارة ويقيني أننا في تراثنا نبز جميع الأمم .

● ويقول حين تسأله عما يؤلمه حقاً . .

أبكي لأمتي المشرذمة المقسمة . . أبكي للحال التي بلغناها ، فلو اتحدنا واجتمعنا لتجاوزنا باقي الأمم . نحن أمة لديها التاريخ واللغة ويجمعنا دين واحد وأرض واحدة ، أي كل مقومات الأمة الواحدة .. فلماذا لا نكون أمة واحدة ..؟! يقول هذا وتتدافع دموع عينيه قبل تدافع الكلام من شفتيه المرتعشتين ..

حسناً أبا هيثم ولكنك نادم كما تنامى الي . وأنت بالطبع لست نادماً على أنك رجمت الفرنسيين حين كنت يافعاً ،) ولست نادماً بالتأكيد لأنك قدت عملية احراق كتب الفرنسيين في العام ١٩٤٦ حين حملتم تلك الكتب بنعش واحرقتموها.. وحين استخف الطرب بغريد الفرات محمد الفراتي فأنشد قصيدة في تلك الساعة . وأكيد أنك لم تندم على تنديدك الدائم بالمستعمر ، حين كان رفقاؤك ينتدبونك خطيباً كلما دعت الحاجة لذلك . وأيضاً وأيضاً أنت لست نادماً على أنك أنت أنت كاتب هذه الوثيقة التي بين يدي ،ولأنك لست نادماً عليها بالتأكيد نسأقرأها على الملأ ، وبحضورك أنت :

دمشق في ١٩٨٥/٩/٤

السيد الأستاذ نبيل حلمي اسكندر

المشرف على البرامج العامة والاحاديث الثقافية (القسم العربي – هيئة الاذاعة البريطانية)

تحية طيبة وبعد :

اشارة الى كتابكم المؤرخ في ١٩٨٥/٨/٩ المتضمن دعوتي للاسهام في أحاديث « القسم العربي » الثقافية والأدبية ، أوضح لكم مايلي :

لقد قضيت من عمري الأدبي خمسين عاماً لم أذع في محطة ،) أو أنشر في مجلة أجنبية تنطق بالعربية ، فهل أتيح لهذه الاذاعة – التي كان أصحابها الانكليز – سبب محنتنا في فلسطين ، اغرائي بالحديث فيها ولو ملكتني الملايين ؟

كلا . . . وحق عروبتي !

أنا الذي ماخطر بقلبي ساعة أن أرتاح الى الازدواجية عند سواي طوال حياتي ، فكيف يرتاح اليها أدبي وقد جعلته مثالاً يحتذى لقيمي ومثلي ومبادئي لا يحيد عنها ؟ ..

ختاماً ، أرجو قبول عذري مع صادق تحيتي

سعد صائب

وبعد أبا هيثم :

وبعد أيها الكبير كقضية ، أيها العريق كتراث ،) أيها المتألق كحضارة . أحقاً تجد لديك الجرأة على أن تندم حقاً . فلتندم يارجل ، فهذا حقك في آخر الأمر ، ولكن ثق بأني لست نادماً قط ، ولن أندم وحياتك . لن أندم مادام حسن طالعي قد أتاح لي أن أدرك بعض نفحات وجودك .. بعض اضاءاتك للطريق التي يجب علينا أن نكون . وحياتك أبا هيثم نحن على الطريق .. ولن نندم ولو لم يكن بانتظارنا غير الندم ، أفلا يكفينا ويشفع لنا أننا نستضيء بمشاعل قد تخبو لبعض الوقت ، ولكنها أبداً أبداً .. لن تنطفىء ،) واني أقسم ، وانتم تشهدون .

جمال عبود
٢٤ / ١٠ / ١٩٨٧

أخي سعد يا رفيق العمر

بقلم : د. ابراهيم الكيلاني

كم كنت مسرورا عندما ترامى الي أن جماعة من مريديك ومتذوقي أدبك وعارفي فضلك والمعجبين بشمائلك تنادوا لاقامة حفلة لتكريمك في بلدك الذي أحببت وعشقت ، مدفوعين بالحب والوفاء والاعتراف بالجميل . انها سنة حميدة تكريم رجل الفكر في حياته بعد أن درج الناس ، في شرقنا العربي ، على تكريمه بعد وفاته ، وهذا لعمري أقل تقدير يقدم لمن وقف عمره وعقله ودنياه على تقديس الحرف واعلاء شأن الكلمة .

اخي سعد !

اما وقد بلغنا سوية مرحلة العمر الأخيرة أو ما يسميه الغربيون العمر الثالث ، ولا ندري متى تكون نهايته ، فلا بد في هذا المقام من عودة عجلى الى الوراء ، الى مايقرب من نصف قرن لاستعراض ماض فيه كثير من الحنين والعبر ، وايقاظ الذكريات من رقدتها ، واستحضار الصور التي نجت من البلى وتعادم العهد ، فظلت محتفظة بخطوطها وقسماتها وشيء من ألقها .

تتراءى لي صورتك وملامحك وقدك المشوق ولهجتك الديرية المحببة ووعيك المبكر المنبىء عن ميل أدبي نزاع الى الظهور قبل أوانه ، متخطيا مستوى أقرانك وأندادك في المعرفة والوعي والتلقي . لقد تجلت مواهبك المبكرة في الانكباب على المطالعة وجعلها غذاءك اليومي ، واتخاذ الكتاب سميرا وخدينا حتى بلغت حد الشغف والفهم بل حد افتراس الكتب كما يقول الغربيون . وكنت كلما أمعنت في اشباع ماينزو قلبك اليه أضاءت المطالعات روحك الفتية ، وفكرك اليقظان ، وزودتك بالأفكار الجميلة ، والانفعالات المجدية ، والاخيلة الدقيقة مشفوعة بالاحاسيس التي أيقظت في أعماق نفسك النبتة العجول التي ستجعل منك بعد تفتحها وازدهارها أديبا كبيرا ذا منحى فكري ، وأسلوب كتابي ، هما ركنا صناعة الأدب .

لعل أكبر مميزاتك انك وهبت فضيلتين قل نظيرها بين لداتك هي جمعك في بداية مسارك الأدبي والفكري بين القراءة والكتابة ، فثمة أناس يقرأون ويتقرأون كثيرا ولكنهم لا يكتبون فهم يقفون عند حد التلذذ الفكري . والتذوق العقلي المترف ، والتهذب النفسي ، أو الفرار من واقع أليم ، أو ابتغاء جواء بعيدة وعوالم متمناة ، وهذا كله لا يعدو باب التسلي وتزجية الفراغ . ومنهم من يكتب ولا يقرأ وهم وان حشروا بين الادباء ، وصالوا وجالوا في ساحة الأدب ، فهم يفتحون آبار غيرهم ، فليس لديهم ، وايم الحق ، الا المكرور المعاد ، والرجيع من الأقوال والافكار ، فغاية همهم لفت انظار الجمهور ، والتسلل الى المعبد الأدبي الكبير ، ولكن هيهات ! نظرت ياسعد الى الأدب نظرة جدية ورصينة ، فوقفت عليه أيام عمرك متخذا من « الوظيفة الحكومية » مهنة ثانية تغنيك عن مشاغل المادة ، وبيع الكلمة في سوق الكساد ، وتقيك عثرات الزمان ، وتضمن لك حرية العمل الأدبي والاستقلال الفكري بعيدا عن المساومات والتنازلات التي تفرضها احداث هذا الزمن الأغبر التي باع فيها المثقف العربي نفسه ومثله . ولعل حرصك على الاستقلال الفكري أدى الى عدم أشغالك بالسياسة بالرغم من اغراءاتها وجاذبيتها ولمعان سرابها الخداع واستدراجها الموهوبين من الادباء والفنانين ، لذا فضلت الانصراف الى الكتابة والتأليف حتى تجاوزت كتبك الخمسين عدا ، فيها أذبت ، على مر السنين روحك وفكرك وانا على يقين بانك لم تجن منها ربحا ماديا يذكر ، وأن جل ما حصلت عليه بعد هذا العناء المضني ، والسهر الطويل بضع وريقات سورية لا تسمن ولا تغني من جوع استخلصتها ، بعد الحاف واملال ، وغدو ورواح ، وهياط ومياط من أشداق الناشرين المستغلين ، وبراثن تجار الكتب الجشعين !

أردت بعد أن نمت ثروتك الروحية ، وقويت ملكتك البلاغية ، وقبضت على ناصية اللغة العربية بالدرس والمطالعة والتأمل والتشرب ، الا يخفى عليك شيء جميل في الأدب العالمي ، فتخطيت الحدود ، وعكفت على روائع الأدب الأجنبي مسترشدا حسك السليم ، وذوقك الأصيل فترجمت ماترجمت وكانت حصيلة ذلك مجموعة رائعة من صفوة الأدب الاوربي مما ادخل على أدبنا العربي المعاصر نفمات جديدة ، ونسمات منعشة ، وأنماط من الشعر والنثر لاعهد للناس بها ، فاغتنيت وأغنيت واستحقيت شكر الأجيال .

وبعد هنيئاً لك بهذا التكريم وشكراً للديريين الذين كرموا بشخصك الأدب والأدباء .

تحية الى صديق العمر: سعد صائب

بقلم: د. بديع حقي

أخي سعد :

هاأنت ذا تدنو من السبعين ، وتحبو اليها، وأنا منها ، على قيد خطا ثلاث _ تنفسح سنة في كل خطوة _ ويتراءى لي أن نصف القرن من الزمان الذي مضى على صداقتنا ، لم يتحيف قط ، من قلبك الفتي ، فلعلك تردد مثلي،ماقاله سلامة موسى : (أنا شاب في السبعين من عمري)، فما زالت نظاتك الشابة المتقدة ، تنقب عن مواطن الجمال ، في حدائق الشعر العالمي ، لتقطف منها ورداً ، وريحانا وزهرات يانعة ، تجمعها ، تترجمها ، تنسقها ، بيدك اللبقة الصناع ، ثم تزجيها للقارىء العربي ، باقة مؤتلفة ، لا أحلى ولا أندى .

بلى لقد مر نصف قرن ، على صداقتنا ، ولكن ذاكرتي مازالت تدخر صورة الشاب سعد، بقامته المشيقة الفارعة التي تطاول النخلة السحوق، وضحكته المترقرقة على شفتيه ، وسحنته التي تشده الى الصحراء ، ولهجته الديرية المحببة ، تقطر نداوة ورياً من ماء الفرات .

بلى ان هذا الشاب النحيل ، كان مثلي يغمس نظراته الظامئة في موارد الأدب التي أحب أن أنهل منها ، كان يحب ماأحب ، ويتذوق ما أتذوق ، ويدور كالفراشة الجذلى ، الحالمة ، الحائمة حول زهراتها الشذية ، في بستانها الممرع النضير .

بلى انه مثلي مولع بالشعر الفرنسي ، يحب بودلير وفيرلين ومالارميه ورامبو ، والشعراء الرمزيين على نحو ظاهر متميز، واتساءل، آنذاك، في قرارة نفسي ، علام لا ينظم سعد الشعر ، وهو الذي يملك الكلمة الموحية ويعرف مواطن الجمال في القصيد ، وأوتيع ، صاباً ، أن يقرزم الشعر ليسلس له الوزن وتنقاد القافية . لا . انه يؤثر أن يظل ، دوماً ، كالنحلة الرشيقة البارعة ، يصنع الشهد الشهي للناس ، أكثر ما يصنعه لنفسه ، فهو ينقل أروع الشعر العالمي الى العربية ، دون أن ينظم الشعر ، مكتفياً بهذه المهمة الشاقة الحلوة معاً ، ليروي ظمأ من ينشدون الينابيع الثرة السخية التي يجهلها القارىء العربي .

وتترادف الزيارات فيما بيننا ، ياسعد ، اقرأ لك بعض ما أنظم أو أكتب ، وتقرأ لي بعض ما تسطر من مقالات ، وما يهمس في خاطرك من أفكار ، وما تنتخل من شعر رائع عالمي ، تنقله الى العربية ، بأسلوبك المجنح وتوشيه بتعليقاتك وتحليلك البارع ، حتى اذا اتسق لك ، ذات يوم ، مما ترجمت ونقلت من شعر ، باقة تتضوع عطراً وسحراً ، ضمها كتابك (شعراء رمزيون وشعراء معاصرون) طلبت الي ، أن أصدره بمقدمة ، فلبيت مغتبطاً ، لتكون هذه المقدمة موضع اعتزازي ورمزاً للصداقة المشتركة والمودة الخالصة ، ودلالة لما يجمع بيني وبينك من مشاعر متماثلة في تذوق الشعر . فكأننا كنا ، في هذا الكتاب ، على موعد منتظر مضروب ، نتحدث في ركن منعزل من أركان غرفتك ، ونتبادل الرأي ، في مشاكل ترجمة الشعر ومعاناتها ، فقد كانت تجاذبني الهموم نفسها ، فما كنت أنقل شعر رابندرانات طاغور ، نثراً ، الى اللغة العربية ، (لان القصيدة — كما جلوت أنا في مقدمة كتابك هذا ، تشبه كائناً سوياً ، انها تلهث وتتنفس بألفاظها ، وتسعى وتتحرك بأوزانها ، وتنادى وتستجيب بقوافيها وتحلم وتفكر بمعانيها ، فاذا افتلذت عضواً من أعضائها بالترجمة ، غاض رونقها وجف ماء الحياة فيها ، وأضحت مهمة المترجم ، كمهمة الطبيب : أن يسعف القصيدة بعلاجه ، بألفاظه ، بلقانته وحسن فهمه ، حتى يتأتى لبعض نسيمات الحياة أن تفيء اليها) .

وكذلك عرفت ياسعد بما لديك من الفاظ رقيقة ، طيعة ، أن تغري معاني قصائدك المعربة ، بألفاظ قشيبة ، أمينة للاصل ، معنى ومبنى .

وتستبد بي الآفاق النائية ، في عملي الدبلوماسي ، بعيداً عن دمشق ، فأكتب لك ، من فرنسا وسويسرا وأفغانستان وغيرها ، وانفض لك مواجع حنيني الى الوطن الحبيب ، واتلقى رسائلك ، في غربتي البعيدة ، ندية بالشوق والمحبة والوفاء .

هكذا تظل ياسعد ، صديق العمر الذي يكن لي الود ، سمحا ، صافيا ، نقياً ...

ولما صدر ديواني (سحر) — وكنت سمعت أكثر قصائده في داري أو دارك — أبيت الا أن تكتب عنه دراسة وافية ، دللت فيها على مواطن الجمال فيه ، وانساقت ، في حروف مقالك ، المحللة المعجبة ، نبضات من قلبك الوفي المعطاء .

منذ قرابة شهر ، أقيم حفل ، في اتحاد الكتاب العرب ، تكريماً لأدبي وتقويماً له ، وقد أسعدني أن تكون بين الحاضرين الذين شاؤوا أن يحيطوني ، آنذاك ، بنظراتهم المحبة ، لقد كان هذا التكريم ، في الواقع ، تكريماً لرفاق دربك الطويل ، ليشق الحرف الهازج الحلو ، طريقه اللاحبة ، الى القلوب ، كل القلوب .

وهانذا أسمع أن مدينة دير الزور ، حيث ولدت ونشأت ، حيث انساقت نظراتك اللاهفة ، الى ضفاف فراتها العظيم ، وتسلقت معارج فضائها الرحب ، وتغلغلت في مدى صحرائها المترامية ، أن هذه المدينة العربية العريقة ، تريد أن تكرم سعد صائب ، ابنها الحبيب الذي سعى ، عمره كله ، لاغناء المكتبة العربية بأحلى ما اشتاره من صور وكلمات وقصائد ، من كنوز الأدب الغربي ، ليريقه في رئات كلمات عربية أصيلة .

وانه ليحلو لي ، أنا صديق العمر ، أن تستبق تحيتي وكلماتي هذه المتواضعة ، الى هذه المناسبة ، لتلهج بمزاياك وأدبك ، أنت الذي ظل يعمل ، خلال نصف قرن ، في صبر وصمت وأناة ، ليمجد الحرف العربي ويوشيه بوساوس فكره وخفقات قلبه وخطرات نفسه ووجدانه .

باقة حروف

مهداة : الى الاستاذ والاديب سعد صائب

عانق الشمس وابدأ المهرجانا   مثلما كنت تزدهي عنفوانا
عانق الشمس واتقد فالليالي   بين كفيك تشعل الشمعدانا
عانق الشمس مارداً المعيا   وأركب الريح في السباق حصانا
ان من يركب الرياح أبيا   ليس يرضى مذلة وهوانا
ياأديبا توهج الفكر فيه   من ينابيع صفوه أغنانا
أنت ما زلت في العطاء شبابا   وأمير الشباب من أعطانا
ليس من شاب شعره صار كهلاً   انما الكهل من كبا وتوانا
أنت أبحرت في الخضم دؤوبا   فغدوت الأمواج والربانا
أنت أذكيت في الحروف لساني   فنسجت البديع والألحانا
يزهر الفكر في الرجال اذا ما   جعلوا منه في الورى بستانا
ايه ياسعد كنت نبراس مجد   في عيون التاريخ تهوى الرهانا
لم تزل تحمل الضياء وتمضي   باباء لتقتل السرطانا
انه الجهل ذاك أدهى وباءً   ان رمانا فلن تفوز خطانا
ايه ياسعد ياأخا الحرف عفواً   هل سمعت الحسون والكروانا
يعزفان الألحان للنهر عشقاً   وغناء الطيور كم أشجانا
هل تراني والليل يمتد حولي   مثل بحر قد اغرق الشطآنا
انا ماكنت للظلام ذليلا   رغم ليلي والعزم لا ما استكانا
إنني الآن فيك أبصر دنيا   مثل دنيا الفرات تغني الزمانا
ان نهر الفرات يكبر فينا   فهو من فيض مائه قد سقانا
ان نهر الفرات أعظم نهر   ان أردناه للصحارى جنانا
ايه ياسعد ياأخا المجد قل لي   من تخلى عن الجهاد وهانا
من تلاش يوم الميادين صاحت   من رمى السيف في التراب وخانا
ما الذي فرق البلاد بذل   فغدى لون ثوبها ألوانا
ما الذي شرد النساء فراحت   تلعن الذل ما يكون وكانا
ما الذي أرعب الصغار فصاروا   يمضغون الآلام والأحزانا
ما الذي أشبع الحزانى دموعاً   ماالذي أطعم الجياع وخانا
ما الذي ما الذي أجبني فاني   صرت في بحر حيرتي سكرانا
أطلق الصوت غاضباً وفؤادي   يتلظى على صراخ الحزانى
لا رعى الله مارقاً وعميلاً   وأثيماً وتاجراً وجبانا
ايه ياسعد لا تلمني عذراً   ان غدا الشعر في فمي غضبانا
فلقد كنت ثائراً في المواضي   تبعث الحرف في الوغا بركانا
لك ياسعد باقة من حروفي   فخذ الجلنار والاقحوانا

شعر: محمد عبد الحدو

اليوم بُعثت

كلمة : سعد صائب

السيد المحافظ راعي الحفل !

السيد اللواء قائد المنطقة الشرقية !

أيها المواطنون الأعزاء !

أيها الأخوة الأدباء رفاق الدرب !

الحق أقول إني لا أدري كيف أعرب لكم عن سعادتي ، ولا كيف أعبر لكم عما داخلني من سرور لا يعدله شيء وأنا أرنو إلى جمعكم الحافل — خلال هاتين الأمسيتين — فأحس بالدفء يسري في حناياي ، وأعير سمعي إلى أقوال اخوتي الأدباء ، وهم من أفذاذ الكتاب والشعراء ونوابغهم ، فتساورني البهجة مما بذلتم وبذلوا من ود لي ، يدلني أعظم دلالة على أني أصبت عند كليكما منزلة وجاهاً ، ويبتهج قلبي، بخاصة ، لما أسبغه علي اخوتي المتحدثون والشعراء ، من تقدير أبدوه نحوي، اثلج صدري ، وأدفأ عاطفتي ! .

ولست أخفي عليكم ، وقد أخذت — في هاتين الأمسيتين — حظي من الحفاوة ، وقسطي من المودة والتكريم ، مما لا قبل لسواي بهما ، أني حاكيت طائر « الفينيق » أو « العنقاء » كما ندعوه ... ذلك الطائر الخرافي الشبيه بالنسر ، الذي يرسل ريشه بريقاً من أرجوان وذهب ، وأنه — كما تزعم الأسطورة — يعمر خمسة قرون ، وبعد أن يحرق نفسه يبعث من رماده أتم شباباً وجمالاً .. مع الفارق أني عمرت سبعين عاماً ، بلغني ابانها الكبر وثقلت أذناي ، وتعاورتني همومها ، واحتملت من أجلها مشقة شديدة انقضت ظهري .. وانكم — رغم هذا — بعثتموني من رماد حياتي ، وأنا أتم شباباً وجمالاً . على الرغم من أن الزمن نزح بي عنكم ، وإني منذ نزوحي لاأفتأ اكابد آلاماً مبرحة من فراقكم !.

أجل ! لقد حالفني الحظ فولدت اليوم، وبعثت الساعة التي أتلفت فيها فأراكم ماثلين حيالي بكل ما تحملون من صدق إخاء ، وما تكنون من طيب وفاء وما تضمرون من نبل اريحية ! .. أجل ! لقد بعثت اليوم بعدأن أسرجتم لي المحبة ، واسلمتموني عنانها ، وقلتم لي : إدأب على السير على درب الأدب بقلب دافء ، وصل .. وحذار ، حذار أن تتقف خلال مسيرتك،وإلا استرددنا محبتنا ، وأمسكنا عن مودتنا ، فما غير الأدب الذي التزمت به يشدك الينا ، ومانم غير الإرادة الحنة يدلنا عليك .. فنحن اليوم أكثر من أي وقت مضى بأمس الحاجة إلى الأدباء الملتزمين ، ذوي القلوب التي آنسناها بمحبتنا ، وذوي الضمائر الحية التي أوليناها رعايتنا وحدبنا ، وذوي الأفكار التي تعانق حقيقتنا ولا تنأى عنها ، لأنها هي وحدها التي تحررهم من إغلالهم !.

لكأني بعيونكم تهمس لي، وتلحف في همسها :

آن لك الساعة أن تجهر لنا بقولك ، وتتحدث لنا عن أدبك ، بعد أن سرى عنا زملاؤك ماقالوه عنك ، ولن نلتمس لصمتك عذراً ، فليس بد من حديثك .. أفصح لنا أنت عن مكنونك ، كما أفصح أخوتك الأدباء

عنك ، وأسمعنا نبض قلبك ، كما أسمعونا نبضات قلوبهم •• امزج رؤيتك برؤيتهم ، كيما تبدو لنا الرؤيتان حقيقتين ماثلتين لعياننا ، نستاف منهما عبير الليلتين ، ونتذوق عذوبة شهدهما ! ••

حنانيكم ! لاتستعجلوا همسكم !

حنانيكم لا تستحثوني على الحديث عن أدبي ، فانه ليكفيكم ما اورده عني خلاني الأدباء ، وما أنشده في أخوتي الشعراء ••• فلست أستطيب الحديث عن أدبي وما أعطيت ، ولا أستلذ القول في تجربتي الأدبية وماعانيت، بعد أن فاضوا بذكرهما آيما إفاضة ،وأدلوا بآرائهم السديدة بشأنهما ، وأفصحوا عن نظرتكم الحصيفة بصددها ، فكانوا ـ كعهدي بهم ـ بارعين حين يتصدون للتعريف بأديب ، ملمين في تذوق نتاجه وفهمه ، حاذقين في تنويم مذهبه ، وتصوير اسهامه في الحركة الأدبيةالتي عايشها،والتجربة الأدبية التي مارسها وعاناها!•

لست بصدد الكلام عن هذا كله ، ولا بسبيل القول فيه ••• ـ ولكي لا أقطع رجاءكم أو أطيل الحديث فيثقل عليكم ـ سأكتفي باليسير من الكلام عن وظيفتي أو رسالتي كأديب أمضى نصف قرن صبر فيه عن لذات الحياة ، ولم يأبه لها أو يعيرها اهتماماً حتى ليصدق في قول شاعرنا « أبو دلف » :

صبرت عن اللذات حتى تولت
وألزمت نفسي صبرها فاستمرت
وما النفس الا حيث يجعلها الفتى
فان أطمعت تاقت وإلا تسلت

حاملاً رسالتي أمانة في عنقي ، وعهداً آليت على نفسي الوفاء به ، على الرغم من صعاب الحياة الجمة التي اعتورتني ، وعقبات العيش الوافرة التي اعترضت سبيلي ، شأن كل أديب تمر أمته في مرحلة انتقال ، تطاح فيها إلى بلوغ ماترجوه من تطور حضاري ، ، يسكن القول على نحو آخر ، إلى بلوغ ما ترجوه من رقي وازدهار يسموان بقيمة الأدب ، ويرفعان من شأن الأدباء ! •

ثمة سؤال يتبادر إلى ذهني وأنا واقف حيالكم :

ترى •• هل حققت ما استحق عليه تكريماً، في هذه الحقبة المنقضية من حياتي ، وقد علا الشيب رأسي ؟••

قبل لقائي بكم ، واستماعي الى الكلمات الرائعة التي ألقاها اخوتي الأدباء والشعراء الذين قامت بيني وبينهم وشائج الأخوة ، وتوثقت أواصر المحبة ، وما طاف بأذهانهم من حياتي الأدبية ، لم أكن إخال أنني استحق هذا التكريم ••• أما بعد هذا اللقاء الجميل ، والقاء الأخوة كلماتهم وقصائدهم ، وما اسبغوه علي فيما تناولوه مستفيضين في جلاء تجربتي الأدبية ، أعني تبعتي كأديب ، وهي أعمق التبعات عمقاً ، واشارتهم الى وظيفتي ككاتب وهي أخطر الوظائف خطراً لمن يتصدى للقيام بها ، والتزام واجباتها ، فاني أدع لكم وللزمن الحكم لي أو علي ، لأنكما وحدكما تملكان الإجابة ، ولأنكما وحدكما تبتان في الحكم ! •• وأياً كان الواقع الذي درسوه ، والحقيقة التي كشفوا عنها ، فيما يتصل بي وبأدبي ، فانني

أجد أن مسيرتي الأدبية ، ومنهجي الفكري ما برحا في أول الطريق ، وانني لأنني سائراً ، يحدوني ايمان بأن الأدب كالحياة يتطلب سعياً حثيثاً ، وجهداً جهيداً في سبيل السمو به نحو الأفضل ... وما أرجوه وآمله أن يمتد بي العمر فأحقق ماأصبو اليه من طموح أدبي ، وتوق فكري يحققان رغبتي ، ويلبيان تطلعي.. واني لمدرك هذه الحقيقة ، واع لها في سهولة ويسر ، من خلال ادراكي جوهر العمل الأدبي ومقوماته من حيث هو فكر وهداية ، ومن حيث هو وظيفة ورسالة ، ملتزماً بهما ، لا أحيد عنهما ، ولا أتجاوزهما ، ايماناً مني بأن الكاتب « لا يكتب في المطلق أو المجرد ، ولكنه يكتب من واقع مجتمع محدد له مشاكله وظروفه ، ليساهم في تطويره ، ويعمل من خلال كتابته على ازالة العوائق أمام هذا التطور » !

أما بعد أن أسرتموني بلقائكم ، وأمتعني إخوتي الشعراء الأدباء بأقوالهم — فقد واتتني الفرصة لأميط اللثام عن منهجي في الأدب ، وأداء دوري كأديب ، واضطلاعي بمسؤوليتي حيال مجتمعي كعضو فيه ، وضعتها نصب عيني ، لم أنز ع عنها ، ولا كففت عن القيام بها ، معتبراً نفسي واحداً من مجتمعي ، مندمجاً فيه ، ناسياً فرديتي ، شاعراً بالالتزام نحوه ، متعاملاً مع وقائعه ، مراعياً رسالة الأدب « كي تصل إلى مداها من عقول الناس ونفوسهم واضحة سليمة مشرقة » وكنت التمس في كل ما كتبت نفعاً تنتفع به أمتي ، وراحة ترتاح اليها نفسي ، يحدوني تفان مكين — واخلاص راسخ خصصت بهما أمتي ، والتزام صادق ، وطموح أكيد ، بنيت على مقوماتهما أدبي ، لا أحيد عما عولت قيد انملة ، يقيناً مني بأن على الأديب أن يوقف نفسه وأدبه لخدمة أمته ومجتمعه ، والوفاء لهما ! ...

لذا أضحى الأدب لدي « ديانة لها كل القدسية ، ولا يمكن أن أغفل شعيرة من شعائرها ، أو اغتفر لنفسي التقصير في أهون نوافلها » منطلقاً — في البدء — على سجيتي ، اخطىء كثيراً ، وأصيب قليلاً .. ولم تزايلني هذه الظاهرة التي ظلت تعذبني وتقض مضجعي والتي كنت أعزوها الى « حداثتي الأدبية » حتى ملكت — بعد جهد وعناء — لغتي الخاصة، واسلوبي الخاص ، فأسلسالي قيادهما على حذر ... أقول على حذر ، لأن القلق والشك ما فتئا يساوراني في امتلاك ناصية هاتين القيمتين .. واني موكل إلى النقاد أمر تقويمهما ، لأنهم أقدر مني بمداخيلهما !...

ولقد سرى ذلك عني أني لم أكن طوال حياتي الأدبية سلبياً ولا منعزلاً ، أو منصرفاً عن الغرض المقصود ، ومرد ذلك كله إلى خلو حياتي من الصراع النفسي ، والقلق الفكري ، وإلى دأبي على فهم الصلة التي تصل أدبي بمجتمعي ، وإلى ادراكي المناخ الذي أتاحه لي، وهذا يدعوني الى القول ان احلال الأديب المحل اللائق به في مجتمعه ، منوط بوعي المجتمع نفسه وتطوره ، كما أنه منوط بقيمة انتاج الأديب ، ومدى التصاقه بمجتمعه ، ومدى تأثيره به وتأثيره فيه،والنهوض به نحو الأفضل، ولن يتأتى ذلك الا برعاية المجتمع اديبه ، وتوجه الأديب نفسه لخدمة قضايا مجتمعه ، وتصديه لمشكلاته ، لا التي يمر بها في مرحلة آنية فحسب،

بل التي يمر بها في مراحل مستقبلية كذلك ، لأن الأديب الحق عراف بله نبي – إن جاز القول – وهو بهذه الصفة أو هذه الأدلة – يمسي في إطار المسؤولية الملقاة على عاتقه – عاملاً هاماً من عوامل هداية المجتمع ، وعنصراً بارزاً من عناصر رقيه وازدهاره ، وهذه العملية الجدلية بين المجتمع والأديب – هي ما أدعوها بعملية التمثل أعني تمثل الأديب طموحات مجتمعه، وتمثل المجتمع تجارب الأديب وطروحاته من خلال فنه الأدبي ... وبقدر ما تكون هذه المبادلة في التمثل عميقة ، يكون التفاعل والانصهار عميقين ! ...

لقد اكتسبت احساسي بذاتي كأديب من حدب مجتمعي علي – وتكريمكم هذا أكبر دليل – ومن شعوري بتوفيره عالمي الداخلي ، وعلى ضوء ذلك فزت بكينونتي فيه ، وعرفت نفسي على أنها أناي الكبرى معه ، ووحدته مع أناي .. ويعني ذلك في جدلية « هيغل » الحب المتبادل بيننا ، يعني مقولة وعي وحدتي معه ، ووعيه مع وحدتي ، فكان – بالقياس إلي – التربة التي أنبتت البذرة ، وكنت – بالقياس اليه – البذرة التي امتلأت بنسغ النمو والتفتح .... ومن هذا التواصل ، أو هذا التكامل بيني وبين مجتمعي تبرز « القيمة الاجتماعية » كمظهر جمالي لروحي وفكري معاً ! ..

وفي يقيني أن قدر الانسان كامن في قيمة ، كما أن قدرها كامن فيه ، فكما يبدع الإنسان القيمة ليسمو بها ، كذلك تبدعه القيمة لتسمو به، فهو في ابداعه يرمي الى تحقيق وجوده في الحياة، وهي في ابداعها تهب له المعنى الذي يجسده فعله للانتصار على الحياة .. ومن وحدة هذين المدلولين تتجلى عظمة الإنسان، لا في اقدامه وشجاعته فحسب ، بل في اقدامه وشجاعته في تقويم فعل الآخرين من أجل انتصارهم عليها كذلك ! ..

ولست مغالياً اذا قلت إنكم – في احتفالكم هذا – قد انطلقتم من تناغم هذه القيمة وفاعليتها ، وسيمسي هذا التناغم بداية تاريخ جديد لبلدكم الحبيب في تكريم أدبائه ورعايتهم والحدب عليهم ... بداية فهم الحقيقة التي توصلتم اليها لإسعاد أدبائكم .. بداية يقظتكم بله ثورتكم الاجتماعية والثقافية التي قامت على وعيكم ونبلكم ... بداية فطنتكم الى قيمة الأدب ، وادراككم أثره وتأثيره، واحساسكم بفرح الرسالة التي يؤديها أدباؤكم ، واعترافكم لها بما يكفل نموها والرقي بها ! ..

وعلى ضوء هذا الاحتفال الذي أقمتموه لي خلال يومين « ومن غير أن أدري أوجدت الدنيا التي كانت تبدو لي من قبل جامدة لاصدى لها في نفسي ، وقد ذابت في احساسي ، وبدت تختلج بالحياة في باطني » فكأن هذين اليومين من عمر الزمن – بالقياس إلي – قد استقطبا الزمن كله ! .

لقد هاجني هذا التكريم من بلدي الحبيب، وفي بلدي الغالي ، فخفق قلبي بالحنان والحب، وفاض بأحاسيس جمة ، وتجاذبته مشاعر غامرة لا عهد لي بها في أيامي الغوابر ، هزتني هزاً

امتلأت به حناياي اكباراً لكم وتقديراً لأخوتي الأدباء الذين يصدق فيهم قول « أبي تمام » :

وقلت : أخ ! قالوا أخ من قرابة ؟

فقلت لهم : إن الشكــول أقارب !

نسيبي في عزمي ورأيي ومذهبـي

وإن باعدتنا في الأصــول المناسب !

وبعــد .....

إذا كان الشكر واجباً أخلاقياً ، يمسي ويناً يلتزم بأدائه !

وإذا كان الشكر انفعالاً صادقاً تنبض به روح المتلقي فيزجيه معبراً فيه عن امتنانه !

وإذا كان الشكر تأثيراً متبادلاً بين أفئدة ائتلفت على الحب والوفاء ، واستمسكت بعروة المودة والإخـــاء !

وإذا كان الشكر موقفاً حياتياً واعياً ، يدل على التماسك الإنساني في أجلى مظاهره !

وإذا كان الشكر تكاملاً روحياً متناغماً يوحد بين القلوب ، وينبىء عن تعاطفها !

وإذا كان الشكر تجديداً للإيمان بجمال الحياة ، وقوة تزيد ثرائها ونعيمها وبهجتها ! ..

إذا كان الشكر كل هذه المرايا العاكسة للشعور الحقيقي ، وهــذه الرؤية الكاشفــة للإحساس الصادق وتلك الأبعاد التي تقــود إلى الحقيقة في سياق الربط عضوياً بين الذات والآخر ، أعني بين الإنسان ومجتمعه ، وصدق تعاملهما ، وجدلية توثيق الصلات بينهما !

إذا كان الشكر يجسد هذه القيم ، ويوحد تلك المواقف ، أمسى لزاماً علي ، وقد انفعلت بتكريمكم ، وتأثرت بائتــلاف أرواحكــم ، واستلذذت حلاوة تجديدكم ايماني بجمال الحياة التي أحياها أديباً ومواطناً .. أن أبوح لمدينتي الغالية بامتناني العميق ، وأولي اخوتي الأدباء شكري الخالص ، وقد أفعمت النشوة العارمة قلبي ، منشداً بيتاً قاله « حافظ ابراهم » حين كرمته دمشق ، يعبر عما تكنه حناياي من حب ، ويفصح عما تعتلج به جوانحي من ود ، هاتفاً :

شكرت جميل صنعكم بدمعي

ودمع العــين مقياس الشعور

النابغة الذبياني
سيرة غير ذاتية

الإهداء: الى الأديب الكبير
سعد صائب

بطافـات :

— ١ —

غريب ومنفرد
صوته الظـل
والريح
والمـاء

غريب
وهذي البراري التي علمته
التسكع
ماعلمته البكاء !

— ٢ —

داخل في المنافي
الهوى مدية في يديه
الرؤى شهوة جارحة
يكتب الآن سفراً لها
يسأل البيـد
صمت العراء
الهوادج
عن لحظة أشعلت قلبه
أينهـا
هـل مضت
أم تراها ارتوت مثل باقي اللحيظات
من دمـه
واستوت فوق عرش انتهاءاته نائحة ؟!

— ٣ —

وحـده هـا يطل
على مطلق واضح العجز
يمتد ظلاً من الريح للريح
ها يسقط الآن
بـين « الفـرات »
وسر الغضا
نخلةً طلعها ناشز
للخـلاص
وحده يدخل الآن
مابين عينيه تسبيحة
لاتقاء الزمان
وفي دمه شهوة للرصاص !

حنـين :

نبدأ الآن
في الذهن كم من القـول والدفء
والأغنيات
عن الليل والرمل والحلوة
العذبة البعـد
في القلب شيء من البوح
في الروح مالا يطاق
من الوجـد
والشعـر
آه (عكاظ)
الا خيمة ناعم جلدها
قبة من هوى الأمس
قافية من تماضر
ترنيمة من نديم الرسول
الا لحظة تقتل الوحدة
الآن
آه (عكاظ)
انتهى الدرب ما بيننا

أم لنا عودة للهجير الذي
يثلج القلب
للحزن يمضي بنا نحوه
هاجساً ذلك الوجه يبقى
ويبقى لنا الدرب
نطرقه كلما لاح ضوء ندي التباشير
تبقى لنا زهوة من ألــم
/ عكاظ / انتفض
تشتعل جبهة الذل
أومىء لهم يأتك الغيث
أنهار دم
/ عكاظ / غداً موعد ثالث
بعده يبدأ السيف
والسيف نعم الخطيب بهذا الزمان
ونعم الحكم !

الدخــول :

خطوةً • • خطوةً ، ندخل الفاجعة
تلك أنثاي
ذاك الذي تحتوي قبضتاه الرياح ، غريمي
وهذا المعم بالصمت ظلي
أنا سيد الوقت
أدري بأن الذي يضحك الآن
يبكي غداً
غير أني أقول الحقيقة
ماهمني البعد
ماأرهبتني التقاويل
وجه التي يعرف القلب يختال رغم اشتعال
الوشاية
يكتظ بالشعر
والخمر
والهيــل
يأتي • • ونبدأ
ماذا ترى تكتب الروح ؟
(كانت هنــا
تخبىء تحت النصيف عالماً من الشهوات
وكان (النعمان) بعينيه المجهدتين
يقبع بين فخذيها
مزهواً بعقمه
مأخوذاً إلى أبعد الجدود
باستدارة النهدين
وتعرجات الجسد الذي يشبه
قارة ظامئة !!

* * *

إنه الحلم
لاطلل يرفل الآن في دفء قلبي
ولا ظبية تسرق الروح
ماذا أقول
تحاماني الكــل
أفردت
شردت
عذبت حباً
وخوفــاً
وجوعاً
فماذا ترى يشعل / الحيرة / اليوم
ماحل بالصحب
آه / عكاظ /
المجالس من يشعل فيها الحياة
ومن يفتح الدرب للشعر
من يمسح الخوف عن وجه مية
آه • • إلى أين يمضي بي الحزن
هل صادف القلب غير الدروب
التي نحو عينيك تمضي

وهل غير عينيك يشتاق نبضي
إذن .. فاضحكي
هاجساً وجهك الحلو يبقى
وتبقين لي
شمعة القلب
حزني الذي أشتهيه خلاصاً
وموتي الذي فيه أرثيك أرثيه
ذاك الذي كان صبحاً يقايض
نهديك بالخمر
والمـــال
والجنـــس
حتى إذا عسعس الليل
أخفى مخالبه ثم جاء
ليندب كذباً على فخذيك الوطن !

هامش :

تخاذلت عنها
وكان الكماة قبيل احتدام الأسنة
يبنون قبراً لها في الضلوع
تخاذلت ..
قلت لها : نلتقي
حين يخلد للنوم كل السكارى
ويأتي الذي تعرفين
يمر كما الحلم بين (المعادات) والدمع
بين الرجولة والشهوة المستباة
ويستقدم الناس :
من يبدأ الآن طقس الرجوع إلى الموت
والموت بالأمس كان يقايض بالخمر
والحور
والجنة المشتهاة
تخاذلت ..
كنت ترى عريها فاضحاً
والمسافة بين انتظارك والحلم
كانت مدى
هل تخاف
وهل تقدم الآن
أم تغمض الكأس عينيك
أم . . . . ؟

اعتـــراف :

حين أسلمت للرمل راحلتي والفضاء الأخير،
التفت
فأيقنت أني ملاق دمي
بين عينيك والمذبح الوطني
اشتعلت
ولملمت قلبي
حمامات وجد
وأكملت درب الردى
كان صوت من الغيب يأتي
يعرش كالشوك في الذهن
يدعو الى الشعر
بينا / عكاظ /
يلوح كفزاعة في الخيال
ويستمطر القلب جرح السؤال
الذي ما انتهى
هل أردت المحال،
وهل رغبتي في الدخول
إلى طقس عينيك جرم
اذن كيف لفوك بالعري
نادوا عليك بسوق التراتيم
والأغنيات الرخيصة :
« وجه كما الحلم
عينان بحرهما آسر كالخيال
ونهدان عاجهما طيع للأصابع

والبطن آه كبطن الغزال
وما تحت هذا وذاك
اشتعال ! »
فمن يا امرأة
يعلن الآن أننا تعبنا
وأن الذي كان بالأمس راح
وذاك الذي كان يحتج بالسيف
والشرف العربي الذبيح
انتهى عند باب الخليفة « مساح جوخ »
وأغفى أليفاً
يهدده الحلم بالحلم
والوعد بالوعد
والكأس بالملك
والملك ــ يدري الجميع ــ غدا لعبة الكل
لا فرق بين الذي تصطفيه الجموع
وبين الذي تصطفيه السيوف !
فمن يعلن الآن أنا تعبنا
ومن يمنع الآن مابين قلبي وعينيك
مابين قلبي وعينيك
ما يشبه الموت
صحراء
نهر من النفط
دشداشة غالها طيب القلب
ذاك الذي يلهث العهر بين عباءاته
والكتاب المقدس
أعيذك ياحلوتي من عقال اذا زار زمزم
مليون زورة
يبقى عقالاً مدنس

هامش :

مازلت تكابر
تبحث في رمل الأيام
عن القافلة الأولى
عن وجه امرأة صارت عزتها
مبغى لجنود الروم
مازلت تكابـــر
تصـــرخ
تهـــذي
تعتز جهاراً بالشامخ مابين الـ ....
تدعوه الفاتح
سيف الغزوات
نصيرك في ساح الشرف المثلوم
مازلت تكابـــر
تصرخ
تهـــذي
أنت العارف
منذ البـــدء
بأنك مهزوم .. مهزوم .. مهزوم !

الخيبـــة :

عبثاً تبحث في الغربة عن سر الوقت
ستظل تطرز وجه الليل بخوف
مكتوب في لوح الصمت
ستغامر ، لكن لن تلقى في كل الصحراء
جواباً لسؤالك عن وطن نثرته
الريـــح
وبعثره صلف الأبناء
لا تصـــرخ
لا . .
لن يجدي الصـــوت
ولن يرجع واديك الصوت
ماكنت إلهاً
ماكنت نبياً
ماكنت سوى وجع منذور

للرمل الأخرس
والبيد القاتلة الصماء
فادخل قفرك .. واقرأ
مرثية للفـرح الراحل
على الرسم الغافي يطلع
فأرسه من رحم أثا فيه
المهجورة
على الدمع الساقط من عينيك الذابلتـين
يضيء
ليولد نجم في شرفة البيت
في / الحـيرة /

اعتراف اخير :

آه
لقلقت الدفء
الكتـب
الصــور
حديث الصحب
واستثنيت ـ طويل العمر ـ
أراه الآن يراود دربي
يرقص بين دمي والماء
ماجدوى أن أرفض
مادام هو الأقوى
ماجدوى أن أكتب
أو أنثر شعر حبيبة قلبي
وأفليه بضوء الفصحى
عبثاً أفعل مادمت أراه
وما دام النهر يغير حسب مشيئته مجراه!!